شيخ الهند العلامة محمد عزير شمس - شخصيته وأبرز آرائه اللُّغَوِيَّة

د. سعيد أحمد حياة المُشَرَّفي (الهندي، المَيوَاتِي)
كلية الدراسات الإسلامية واللغة العربية، جامعة جُميرا، دُبَي
almusharrafi96@hotmail.com

==========

The Sheikh of India Muhammad Uzair Shams

His personality and his most prominent linguistic opinions

By: Dr Sayeed Ahmad Almusharrafi

Abstract: There is no doubt that the personality of the brilliant scholar, investigator, "Student of the Harmain Shareefain," Sheikh Muhammad Uzair Shams, is an encyclopedic personality, rich in many meanings and various indications. There is also no doubt that getting to know the truth about that personality and accessing the depths of its knowledge requires a number of researchers, to interrogate its intellectual and cultural output and to deduce educational opinions and visions, so the students, researchers and scholars can benefit from it and to be guided by it in their scientific and intellectual life and in their advocacy, and educational fields. In this scholarly article, I sought to find something like that, with the help of the information and knowledge available to me about Sheikh Uzair, and I divided this work into the following sections:

Introduction: it includes a statement of the importance of the subject and an indication of the need to study his personality from all human, moral, scientific, cultural, critical, research and advocacy aspects.

The first chapter: the scholar Muhammad Uzair Shams and the most important elements of his personality, and it contains 8 topics: The first topic: "A glimpse into the distant past." The second topic: {Our Lord, grant us from our wives and children what will be the cold for our eyes}. The third topic: {And the father of both of them was righteous} The fourth topic: "The mother is a school, if you prepare her, you prepare a generation of good races." The fifth topic: "...so memorize, for every memorizer is an Imam." The sixth topic: "The teacher can be like a messenger" The seventh topic: "What was a gang that I had regretted!" The eighth topic: {I will not leave until I reach the forum of two sees or spend a period of time}.

The second chapter: the most important linguistic opinions of the scholar Muhammad Uzair Shams, and it contains four topics: The first topic: a hint that the Sheikh's opinions stem from a legal and trustworthy personality. The second topic: the sheikh's opinion on the issue of renewing the Arabic language. The third topic: the opinion of the sheikh in the science of Arooz and Quafiya. The fourth topic: Sheikh Muhammad Uzair Shams between the language of science and the language of literature. Conclusion and technical indexes, which are of two types: index of references and sources, and index of topics.

مُـقـدِّمَـة: الحمد لله ذي الجلال والإكرام، بديع الأرض والسموات، بثَّ فيهما ما يعمرها من الأناسي والأنام، وما يزينها ويضيئها من شموس ونجوم وأجرام، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم، وخيرِ الأنام، رسولنا وحبيبنا محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه الكرام، نجوم الهدى في دياجير الظلام، وعلى آله وصحبه

أجمعين، ومن اقتدى بهديهم حتى نلتقى بهم في دار السلام. أما بعد:

فلا شك أن شخصيةالعلامة المحقق النابغة "طالبَ الحرمين" الشيخ محمد عزير شمس -الذي وافته المنيةيوم السبت، الموافق 20 ربيع الأول، عام 1444هـ -(2022/10/15م)- شخصية موسوعية، وثريَّة بالمعاني الكثيرة، وغنية بالدلالات المتنوعة، كما لا شك –أيضًا- في أن سبر أغوار تلك الشخصية الفذة تحتاج إلى عصبةٍمن أولي همة وقوة، وطائفة من ذوي خبرة وجلد ومراس؛ فتتوفر على مطالعة أعمالها، والغوص في أعماقها؛لاستنطاق نتاجهاالفكري والثقافي، وبلورةِ آرائه ومواقفه التعليمية والتربوية؛ ومن ثم تقدم مستخلص كل أولئك للطلابوالباحثين والعلماء زادًا مباركًا ومتاعًا نافعًا؛ ليسترشدوا بها في حياتهم العلمية و الفكرية و مجالاتهم الدعوية و التعليمية و التربوية، وما إلى ذلك.

وإنَّ أي شخص يطّلع على أعمال الراحل –رحمه الله تعالى- ونشاطاته العلمية والفكرية يثور بين يديه تساؤل وجيه: ترى كيف وصل الشيخ إلى ما كانقد وصل إليه من قوةٍ ومكنة في العلم،وسعة وشمول في المعرفة، ونضج واتزان في الفكر، و روعة وبهاء في الطرح،وهمة ونشاط وحيوية في العمل، وغزارة و تميز في الإنتاج، مع تحليه بأخلاق كريمة وشمائل حميدة،و بخاصة التواضع و النصح والمحبة والاحترام للجميع؟

ولا شك كذلك أن كل واحد منا يدغدغه شعوره من الداخل بأن يتطوروبرتقي، فيحوز بأعلى مراتب النبوغ،ويتربع على عرش العلم والمعرفة و الإنتاج؛ لكي يسعد في حياته،و أيضًا لكي يَحظى لدى الناس بالقبول و الاحترام. وهو شعور مشروع بل مطلوب. قال تعالى: {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ}[1] وقال عزَّمن قائل:

{يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}[2]

وهذه التساؤلات تسوقنا إلى أن نحاول التعرف على تلكم الصفات والخصال–أو أهمها و أبرزها- التي اتسم بها من كان من بني آدم ألمعيا أولوذعيا، أو مَن تم وسْمه بالنبوغ والعبقرية منهم. وإذابحثنا عن بعض أو أهم صفات المتميزين وأنعمنا فيها النظر فسنجد لديهم سمةً بارزة تكاد تكون مشتركة بين جميع العباقرة والمتميزين،ألا وهي غزارة النتاج العلمي والفكري.وهذه الميزة غالباً ما ترتبط بالألمعية والذكاء.ولكنَّ ثمَّة تساؤلا آخر-ومهمًّا أيضًا- يليه، وهو، تُرى،كيف يمكن الإنسانَ أن يكون غزيرَالإنتاج؟

لقد أجاب عن هذا التساؤل من قبل، العالِمُ العبقري ألْبِرْت أينْشتاين (Einstein Albert- 1879-1955)بقوله:«ليس لدي أي موهبة خاصة، لدي فقط حبي للاستطلاع!»[3]وقال أيضًا: «ليست الفكرة في أني فائق الذكاء، بل كل ما في الأمر أني أقضي وقتاً أطول في حل المشاكل.»[4]

---

(1) سورة الانشقاق، الآية: 19.

(2) سورة الحشر، الآية: 18.

(3) انظر:https://ar.wikipedia.org/wiki

(4) السابق.

وهذا يعني أن حب الاستطلاع والمداومة عليه في كل الظروف هو في نفسه نوع من أنواع الذكاء الفارط والعبقرية. فإذا ما استثمر الإنسان وقته بتخطيط والتزام فسيكون نتاجه العلمي والثقافي مختلفاً تماما.ثم إن ما يقرب الإنسانَ ويشجعه على سلوك درب العباقرة هو الاطلاع على سيرهم، وطريقة استثمار أوقاتهم وأسلوب توظيف قدراتهم وصقل وتنمية مهاراتهم.وهذا الأمر هو الذي سوف يدفع بالإنسان نحو التميز والتألق.

وإن من يطلع على جوانب من سيرة العلامة محمد عزير شمس فسيكتشف -من غير ما عناء أو دون ما طول تروٍّ- أن هناك ارتباطا وثيقا بين ما يقوله هذا العبقري وبين شخصية العلامة الجهبذ الشيخ محمد عزير شمس رحمه الله .

وهذه المقالة التي اشتمل عليها الفصل الأول سوف يحاول توضيح هذا الترابط بين العبقرية وبين فقيدنا الغالي العلامة محمد عزير شمس، وكل ذلك -طبعا- في ضوء ما تيسر لي حتى الآن من اطلاع على سوانح حياة الشيخ، ليس إلا. ولا أشك أن المقالات والأبحاث والكتب الوثائقية التي سوف تصدر عن الراحل العظيم قريبا من هنا وهناك سوف تكشف لنا مزيدا من الزوايا والخفايا والحقائق المرتبطة بشخصه الكريم مما -ربما- لم يمر يوما بخلدنا، وسوف تفتح أمامنا كذلك آفاقا جديدة من الروافد التي كان لها دور كبير في صياغة شخصية الشيخ العلمية والفكرية وبناء صرحها الثقافي والمعرفي.

وتلك المقومات والروافد والسواقي التي أسهمت في تشكيل شخصية فضيلة الشيخ العلامة محمد عزير شمس هي التي سوف يتحدث عنها الفصل الثاني. وهي كثيرة وصافية ومتدفقة، فكان من الطبيعي أن يطمّ بحره، ومن ثم يفيض ينابيعَ ثرة وجداول وأنهارًا (...أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى...)[1]

ولا شك أن نظرة الشيخ -رحمه الله- كانت ذات إحاطة وعمق وشمول في كافة العلوم والفنون الإسلامية والعربية تقريبا، بل حتى في الرياضيات بالإضافة إلى اللغة الإنجليزية وآدابها، ناهيكم –طبعا- عن لغاته الأُمَّات مثل الأردية والهندية. وقد تكون لديه كذلك معرفة جيدة باللغة السنسكريتية (التي هي بالنسبة للغات الهندية كاللاتينية بالنسبة للغات الأوروبية)؛ بقرينة أنه في مرحلة الدكتوراه تطرق إلى قضية العروض والقافية في غير الشعر العربي، وبالتحديد في الشعر الهندي أو التراتيل والأناشيد الدينية الهندية التي ترجع بعضها إلى ما قبل القرن الرابع عشر للميلاد.

وقد رجعتُ،بعد رحيله -رحمه الله- إلى بعض كتبه ومحاضراته ومجالسه أو مقابلاته العلمية الموجودة على الشبكة العنكبوتية، بالإضافة إلى الكتاب الذي جمع مقالاته باللغة الأردية، فازددتُ به إعجابًا وإكبارًا وحبًّا وتعظيمًا.

---

(1) سورة محمد، جزء من الآية: 15.

فالشيخ يتحدث في كل فن وكأنه متخصص فيه، وكأنما لا يجيد سواه، ولقد استفدت من أحاديثه في مجال اللغة والأدب أمورا وآراء رائعة، لم أكن أتصور بعضها من قبل كما يتصورها الشيخ. ولقد رأيتُ فيما وقفت عليه من آرائه في بعض المسائل الفقهية قوةً ووجاهة تجعلها أقرب الآراء إلى العقل والصحة والصواب -على الأقل بالنسبة لبيئات ومجتمعات أو تجمعات إسلامية بعينها-، وإن جاءت بعضها مخالفة لما عليه فتاوى بعض العلماء المتخصصين في الفقه. وقد لَمَّحَ إلى ذلك أحد رفقاء الشيخ فضيلة الدكتور نبيل نصار السندي، -وفقه الله-؛ حيث قال: "لَم يكن الشيخ كثير الملازمة لدروس المشايخ، ولكنه كان كثير القراءة واسع الاطلاع، وكان يقرأ في مرحلة الماجستير والدكتوراه مائتين صفحة وأكثر يوميًّا، وكان الشيخ يستدرك على المؤلفين والمحققين ويكتب لهم الملاحظات سرًّا... ومن آخر أعماله مشاركته في تحقيق كتاب الصارم المسلول ... ضمن مشروع تحقيق ما يحتاج إلى إعادة تحقيق (من) كتب شيخ الإسلام..."[(1)]

هذا التلميح بالنسبة لآرائه في بعض المسائل الفقهية، فكيف بآرائه التي أبداها في العلوم والفنون التي كان هو فارسَها؟ والحق أن الشيخ له آراء نيرة، ووجهات نظر قيمة، واختيارات وترجيحات وجيهة في العديد من القضايا والمسائل، وبخاصة تلك المرتبطة بعلوم اللغة واللسانيات وطريقة تدريس اللغات، لا سيما اللغة العربية، وإصلاح المناهج الدراسية في المدارس الإسلامية –خصوصا بشبه القارة الهندية- التي تهتم أغلبها باللغة العربية تعليما وتدريسا في جميع مراحلها، ومع ذلك تأتي الثمار دون المتوقع بكثير.

وقد حاولت في الفصل الثاني التوقف لدى بعض آراء الشيخ، ولكن فقط فيما يتعلق بعلوم اللغة التي كانت ذوقه وشغفه، وإليها كانت تحن وتنزع نفسه على الدوام؛ وقد اقتصرت في هذا البحث على تناول ثلاثة من آرائه فقط؛ لكي أتعرف على حيثيات ذهابه إلى تلكم الآراء، والتحيز إلى تلكم المواقف، حتى ولو كان في بعضها مخالفة لجهابذة الفن وأركانه.

وقد قسمت هذه المقالة إلى مقدمة وفصلين وخاتمة،يتضمن الفصل الأول ثمانية مباحث،يحمل كل واحد منها عنوانا صغيرا يشير إلى مغزى ذلك المبحث،بينما يشتمل الفصل الثاني على أربعة مباحث، و التفصيل فيما يأتي أدناه:

المقدمة:وفيها بيان أهمية الموضوع والإشارة إلى ضرورة تدوين أعمال الشيخ، وأهمية دراسة شخصيته من جميع الجوانب الإنسانية والخلقية والعلمية والثقافية والنقدية والبحثية والدعوية وغير ذلك، إضافة إلى بيان المنهج.

الفصل الأول: العلامة محمد عزير شمس وأهم مقومات شخصيته، وفيه ثمانية مباحث.

المبحث الأول: "لَمحةٌ إلى الماضي البعيدِ".

---

(1)"ترجمة الشيخ المحقق محمد عزير شمس بن شمس الحق بن ضياء الله"، إعداد مركز سلف للبحوث والدراسات الإلكترونية، بإشراف الدكتور محمد بن إبراهيم السعيدي، ص 15-16.

المبحث الثاني: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ}.

المبحث الثالث: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا}.

المبحث الرابع: "الأُمُّ مَدْرَسَةٌ إذَا أَعدَدْتَها ...".

المبحث الخامس: "...فَاحْفَظْ؛ فَكُلُّ حَافِظٍ إِمَامُ".

المبحث السادس: "كَادَ المُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولا".

المبحث السابع: "للهِ دَرُّ عُصَابَةٍ نَادَمْتُهم...".

المبحث الثامن: {لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا}.

الفصل الثاني: أهم الآراء اللغوية للعلامة محمد عزيرشمس، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تلميح إلى أن آراء الشيخ نابعة عن شخصية اعتبارية وثقة.

المبحث الثاني: رأي الشيخ في قضية تجديد اللغة العربية.

المبحث الثالث: رأي الشيخ في علم العروض والقافية.

المبحث الرابع: الشيخ محمد عزيرشمس بين لغة العلم ولغة الأدب.

وأما المنهج الذي سلكته في كتابة هذه الأسطر فهو تكاملي، يستند إلى المنهج التحليلي والتاريخي والاستنباطي بحسب ما يقتضيه المقام ويتطلبه السياق، علما بأنه لا توجد حتى الآن أبحاث أو مقالات أو مراجع خاصة عن الراحل، لذلك اعتمدت في هذه الدراسة على كتاب منشورواحد عنه فقط، وهو (مقالات الشيخ محمد عزيرشمس...، جمع وترتيب الشيخ حافظ شاهد شفيق) وهو باللغة الأردية، وغالب اعتمادي في معلومات هذا البحث على أحاديثه ولقاءاته الإذاعية الموجودة على الشبكة.

الفصل الأول:

العلامة محمد عزيرشمس وأهم مقومات شخصيته

المبحث الأول: "لَمحةٌإلى الماضي البعيدِ"[1]:

مسكن آباء فضيلة شيخ الهند العلامة محمد عزيرشمس وأجداده هو قرية (بَلْكَتْوَا- Balkatwa)، على مقربة من منطقة "دَيْفَدَا" (Devdha) الشهيرة، التابعة لأعمال مُحافظة "مَدُو بَاني"(Madhubani) بولاية بيهار(Bihar)، الواقعة بشمال الهند على مسافة(1100) كم من عاصمة الهندنيو دلهي. أما محافظة "مَدُو

(1) هذا العنوان مقتبس من الشطر الأول من البيت الثاني من إحدى القصائد الشهيرةلشاعر المهجر: إيليا أبو ماضي (1889–1957، في ديوانه، ص 736–737، ط/ دار العودة، بيروت) التي يقول فيها:

وَطـــنَ النُّـجُومِ! أَنَـا هُـنَا * حَـدِّقْ، أَتَـذْكُـرُ مَـنْ أَنَـا؟

أَلَمَحْتَ فِي المَاضِي البَعيد * .....

وقد كان الراحل الشيخ محمد عزير شمس مطلعا على كافة نتاجه الأدبي والشعري وآرائه النقدية خاصة.ولا شك -عندي- أن هناك تشابها بين الراحل وبين مضامين بعض أبيات هذه القصيدة، وإن كان جوها مختلفا تماما عن جو هذه الأسطر التي أرسمها هنا. ولكن مع ذلك فإن هذه الأبيات تقفز إلى ذاكرتي كلما أتذكر الراحل رحمه الله تعالى.

بَاني" فتبعد عنها حوالي (1200) كم.

وعرف أغلب أفراد أسرة الشيخ الراحل باشتغالهم بأعمال الزراعة. وقد ذكر الشيخ أن أجداد أسرته معروفون بأسمائهم حتى الجد الثامن؛ ما يعني أن جدها الأعلى عاش –ربما- في أواخر القرن السابع عشر الميلادي. وهي الفترة التي كانت الإمبراطورية المغولية فيها ليس فقط أنها كانت قد بسطت سلطانها وأحكمت سيطرتها على معظم شبه القارة الهندية ووحَّدتها -بجمع شتات الدويلات وضم متناثر الإمارات- وإنما أيضا كانت قد بلغتأوجَها في العزوالرقي والازدهار، ويكون إمبراطورها في هذه الحقبة الزمنية هو -غالبا- أَورَنْك زَيب عَالَم كِير(أبو المظفر محي الدين محمد) الذي حكم الهند بين الفترة:(1658 -1707م).

ومع اشتغال عامة أفراد هذه الأسرة بالزراعة غير أن نفرا منهم حدا بهم الشوق -في منتصف القرن 18- صوب طلب العلم الشرعي. فأصبح جد الشيخ عزير: فضيلة الشيخ رضاء الله -رحمهما الله- من أشهر العلماء والدعاة المعروفين في محافظتَي: "مَادُو بَانِي" و"دَربَنْجَهْ" المتاخمتين. ويبدو أنه -رحمه الله- عاش داعية متطوعا ومعلما في هذه المحافظة الأخيرة أكثر من الأولى، حتى التصقت باسمه كلاحقة بشكل دائم، فاشتهر بين أهلها بـ(الدَّرْبَنْجَوي).[1]

❁❁❁

المبحث الثاني: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ}[2]:

يعتبر الإمام السيد نذير حسين المحدث الدهلوي (ت 1320هـ - 1902م) -رحمه الله- أبًا روحيًّا لعدد ضخم من الطلاب والعلماء والمشايخ في شبه القارة الهندية، وخارجها أيضًا؛ حيث يجاوز عددهم مائةَ ألف تلميذ في مختلف أصقاع العالم. ومن هؤلاء العلماء الذين تشرفوا بالتتلمذ بين يدي هذا الإمام: الشيخ عبدالرحيم البِيربُومِي[3]، (نسبة إلى محافظة "بيربوم"بنفس الولاية). وقد كان محدِّثا وداعيةً كبيرًافي المنطقة، بالإضافة إلى كونه من أثرياء العلماء؛ حيث كان يتاجر في بعض المعادن الثمينة كمصوغات الذهب والفضة واللؤلؤ، وغير ذلك. وبلغ من حبه للعلم والمعرفة والاطلاع أنه كان يشتري جلّ -إن لم أقل كل- المجلات والصحف والجرائد الإسلامية التي كانت تصدر في كل أنحاء شبه القارة الهندية؛ ولا شك أن عددها كان كبيرا جدا،

(1)ويُستبعد أن يكون ممن درس أو تخرج في مدرسة "دار العلوم الأحمدية السلفية"، الواقعة بهذه المحافظة الأخيرة، فينسب إليها نسبة التعلم والإقامة فيها لأجله، على عادة الطلاب الهنود في انتسابهم إلى المدارس التي يتخرجون فيها أو المدن التي تقع فيها تلكم المدارس. حيث إن هذه المدرسة لم تتأسس إلا في عام 1918م، أي قبل وفاة الجد الشيخ الداعية رضاء الله بتسع عشرة سنة فقط. (انظر: مقالات فضيلة الشيخ محمد عزير شمس، جمع وترتيب حافظ شاهد رفيق، الطبعة الأولى، 2020، دار أبي الطيب للبحث والتحقيق، باكستان، ص 561-573).

(2) سورة الفرقان، جزء من الآية: 74.

(3) لم أقف للشيخ على ترجمة تفصيلية.

فتكون حمولتها ضخمة هي الأخرى؛ فما كان بوسع إنسان (ساعي بريد) وحده؛ لكي يحملها كلها إلى الشيخ، فكانوا يستعينون بالعربة (التي تجرها الثيران والأبقار) لتوصيلها إلى منزل الشيخ. وتعود جذور أسرة الشيخ عبدالرحيم إلى دولة أفغانستان، التي وفد منها عدد كبير من العوائل والأسر إلى الهند، إبان حكم الإمبراطورية المغولية الإسلامية، واستوطنوها.[1]

ولقد قضى الشيخ عبدالرحيم -رحمه الله- حياته كلها متطوعا في الدعوة والتعليم وإصلاح أبناء الإسلام وتوعيتهم. ومن جميل المصادفات أن شارك ذات مرة في أحد مجالس الدعوة والتبليغ، وقد حضره عدد من العلماء والشيوخ والدعاة والخطباء المعروفين في المنطقة، وكان من بينهم أيضًا: العالم الشابّ شمس الحق السلفي، الذي -على حداثة سنه- كان خطيبا مفوها وواعظا بارعا، وكانت كلماته الدينية وخطبه الوعظية تتسم بالموضوعية في الطرح، وتتميز بغزارة في المعلومات وشمول في المعرفة وعمق في المعاني والأفكار. وحين استمع الشيخ عبدالرحيم إلى كلمة هذا الشاب لم يتمالك نفسه من التأثر به وبكلمته الرائعة وبيانه الساحر. فتواصل مع والده الشيخ رضاء الله؛وتوطدت بينهما صلاتالأخوة الإسلامية، إلى أن قررا -في النهاية- أن يقويا هذه المعرفة والصداقة ويحوّلاها إلى علاقة أسرية بشكل مستدام، فزوج الشيخُ عبدُالرحيم إحدى كريماته مع الشيخ شمس الحق بن رضاء الله. وقد رزقهما الله سبحانه بذرية طيبة مباركة، منهم خمسة أشقاء، ثانيهما هو شيخنا العلامة الجهبذ: محمد عزير شمس رحمه الله تعالى.

هذا، وشاءت الظروف أن يغادر الشيخ شمس الحق السلفي هذه المدرسة -الأحمدية السلفية- وينتقل مع أسرته الصغيرة إلى مدرسة "دار الحديث" بقرية "صالح دنْجَهْ"(Saleh Danga) الواقعة في محافظة "مُرْشد آباد" بولاية بنغال الغربية. وفي فترة التدريس في هذه المدرسة قَدِمَالشيخُ عزير شمس إلى هذه الدنيا؛ وذلك في عام (1376هـ). (الموافق 1956م). ولم يمر على قدومه سوى أشهر حتى عزم والده (في شهر مايو 1957م) على الانتقال إلى "مدرسة الفيضِ العام" الواقعة بمدينة مَؤُو، بمحافظة "أعظم كره" (بولاية أتر ابراديش) التي تبعد عن محافظة "مرشدآباد" حوالي (700) كم.

ومن هذه المدرسة بدأ الشيخ الراحل رحلته العلمية، وفيها تعلم اللغة الفارسية وحفظ كثيرًا من الأشعار باللغتين الأردية والفارسية لشعراء عظام مثل شاعر الإسلام العلامة محمد إقبال[2]،وعمر الخيام[1] وسعدي

(1) كما أفادني بذلك شقيق الراحل: فضيلة الشيخ **نمير بن شمس الحق المدني** المقيم في دولة قطر، وفقه الله تعالى.

(2) بُلبُل الإسلام: الشاعر الفيلسوف العبقري العلامة محمد إقبال بن الشيخ نور محمد، (1877-1938م)، وهو حقا لؤلؤة الإسلام وجوهرة الهند ومفخرة المسلمين.حصل على الدكتوراه من ألمانيا. وهو أول منادى بضرورة تأسيس دولة مستقلةللمسلمين، باسم باكستان.(انظر: روائع إقبال، السيد أبو الحسن علي الندوي، دار الفكر، دمشق، ط/1، 1960م،ص 7(حاشية)، ثم ص 15-21)

الشيرازي[2] وغيرهم.[3] وقد بقي والده يدرس في هذه المدرسة لمدة عشر سنين متوالية؛ ليكرّ بعد ذلك -في عام 1967م-عائدًا إلى المدرسة الأحمدية السلفية، دربنجهْ -القريبة من موطنه- مرة أخرى، وهنا يلتحق الشيخ -رحمه الله- في السنة الأولى الابتدائية، غير أن مكوث الشيخ الوالد هنا لم يطل؛ حيث انتقل بعد سنة واحدة فقط إلى مدرسة دار الحديث، بمحافظة مرشدآباد، مسقط رأس الشيخ محمد عزير شمس، الذي كان قد طرقَ الآن على عتبة الربيع الثاني عشر من عمره؛ لينتقل بعد ذلك إلى مدينة بنارس التي هي مقر الجامعة السلفية (دار العلوم المركزية)، وتبعد عن محافظة "مدُوباني" بأكثر من (400) كم. فتولى والد الشيخ منصب "مشيخة الحديث" في هذه الجامعة أيضًا، وألحق ولده (عزيرا) بفرع هذه الجامعة المعروف بدار الحديث الرحمانية، وبعد إكمال دراسة المتوسطة هناك التحق بالمرحلة الثانوية في الجامعة السلفية نفسها، وتخرج فيها عام (1967م).

المبحث الثالث: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا}[4]:

لقد نبغ واشتهر من بين أبناء الشيخ رضاء الله: كل من فضيلة الشيخ عين الحق السلفي (ت 1982م) وشقيقه فضيلة الشيخ شمس الحق السلفي (ت 1986م)، وكلاهما من الثمار اليانعة والمباركة التي جادت بها دوحة "دار العلوم الأحمدية السلفية" بمدينة دَرْبَنْجَهْ المجاورة لهم، فمنها نهلا العلم، وفيها تعينا مدرسين، ومنها اكتسبا نسبتهما العلمية: "السلفي". والأول -الشيخ عين الحق- هو عم الشيخ الراحل محمد عزير، والأخير هو والده الكريم رحمهم الله جميعًا.

وبالإضافة إلى وظيفتهما الأساسية: التعليم والتدريس فقد قاما بكل همة وإخلاص وشوق ونشاط بما كان يقوم به والدهما في حياته من الدعوة إلى الله والسعي في توعية الناس والحرص على إصلاح عقائدهم وتحذيرهم عن البدعات والخرافات، فكتب الله سبحانه لهما من المحبة والقبول والتأثير لدى الناس مثل ما

---

(1) غِيَاث الدِّين أبو الْفُتُوح عُمَر بن إِبْرَاهِيْم بن صَالحَ الخَيّام (1048-1130م)وُلِدَ في مدينة نيسابور، خراسان،وتوفي فيها،وهو عالم فلك ورياضيات وفيلسوف وشاعر فارسي، عرف برباعياته.تشير بعض الروايات التاريخية إلى أنه من أصول عربية. (انظر: https://ar.wikipedia.org/wiki)

(2) سعدي الشيرازي، (1189-1292م): شاعر ومتصوف فارسي، تميزت كتاباته بأسلوبها الجزل الواضح وقيم أخلاقية رفيعة، مما جعله أكثر كُتاب الفرس شعبية وشهرة في العالم. نظم الشعر بالفارسية والعربية. ومن شدة تأثر سعدي باللغة العربية اعتبره بعض النقاد أحد أبرز المؤثرين بالقصيدة العربية من ناحية ما أدخلته أشعاره من نظم موسيقية جديدة عبر اقتباس النظم العروضية الفارسية. (انظر: https://www.marefa.org)

(3) لقد بلغ شغف الشيخ محمد عزير بالأدب وخاصة الشعر أنه في أثناء أول سفره إلى طيبة الطيبة لم يحمل معه -رفيقا وأنيسًا وسميرًا- سوى كتابين اثنين فقط:الثاني - بعد المصحف الشريف - هو ديوان الشاعر العظيم ميرزا غالب، وشعره ليس سهل القياد على الفهوم والعقول.

(4) سورة الكهف، جزء من الآية: 82.

كان لوالدهما. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان عمه الشيخ عين الحق السلفي أمينا عاما لمكتبة المدرسة الأحمدية السلفية،لمدة ستين عامًا.[1] أما شقيقه -والد الشيخ عزير شمس- فتولى منصب "شيخ الحديث" فيها. وفي ذلك دليل على أن الوالد الكريم كان -هو الآخر- موضع اهتمام العلماء والمسؤولين؛ حيث كان يتم إسناد "مشيخة الحديث" إليه في جميع المدارس التي قصدها لأجل التدريس فيها.

وقد ذكر الشيخ الراحل -رحمه الله تعالى- في سيرة والده شمس الحق السلفي جوانب مشرقة جدا فيما يتعلق بتدينه وعبادته وزهده وإخلاصه وخشيته وورعه وتقواه من الله سبحانه، وقال بأنه -هو وإخوانه في البيت- أدركوا والدهم وهو مواظب على القيام والتهجد لله سبحانه كل ليلة، وكان يطيل في القراءة والقيام، وأحيانا يشتد به النشيج،فيرتفع صوته باكيًا في أثناء التلاوة والدعاء، فيستيقظ من في البيت. يقول الشيخ شمس: فكنا -نحن الأطفال- نتعجب ونتساءل لماذا يبكي أبونا في الليل؟![2]

وأحسب أن تلكم الشمائل والأخلاق الكريمةكان لها أثرٌ واضحٌ في تكوين شخصية الشيخ الراحل محمد عزير شمس من ناحية السلوك والأخلاق والتقوى والصلاح.

❁❁❁

المبحث الرابع: "الأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعدَدْتَها ..."[3]:

بما أن البيت هو المدرسة الأولى للطفل، فالتربية النفسية والصياغة الفكرية والثقافية لديه كل ذلك يتكون من هناك. ويتأكد لنا هذا الأمر إذا علمنا أن الشيخ عزيرا لم يلتحق بالمدرسة إلا في السنة الثالثة الابتدائية مباشرةً، ما يعني أنه أكمل دراسة مقررات السنتين الأولى والثانية في بيته، ونستشفُّ من ذلك بأن بيئة البيت الذي نشأ وترعرع فيه الشيخ كانت علمية بحتة، وأن عناية الوالدين بأبنائهما واهتمامهما بتعليمهم كانت كبيرة جدا؛ كيف لا وأم الشيخ هي ابنة المحدث والداعية الشيخ عبدالرحيم البيربومي رحمهم الله، فلا شك أنها هي التي كانت تعتني بأولادها -ربما- أكثر من الوالد الذي كان يضطلع بمسؤوليات عديدة ومهمة في المدارس والمعاهد.[4]

وربما عناية الوالدة الكريمة -رحمهاالله- هذه بفلذات أكبادها هي التي جعلت جميعهم يبرزون في المجالات

---

(1) انظر: برنامج: أوراق العمر، الحلقة 12. رمضانالمبارك، عام 1433هـ، أدار الحوار فضيلة الشيخ عبدالرحمن قائد، https://www.youtube.com/watch?v=3_ez-O3zFEE

(2) انظر: مقالات الشيخ محمد عزير شمس، ص:561-572.

(3) البيت من قصيدة لحافظ إبراهيم، وعجزه: * أَعْدَدتَ شَعبًا طَيِّبَ الأَعرَاقِ. (انظر: ديوان حافظ إبراهيم، بتحقيق أحمد أمين وزملائه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط/3، 1987، ص 282)

(4) انظر: برنامج: أوراق العمر، الحلقة 12.

التعليمية والثقافية والدعوية التي خاضوا أو يخوضونها. وكذلك فإن خالات الشيخ الراحل كن عقائل للعلماء والدعاة والمفكرين والشعراء المعروفين في الهند، من أمثال فضيلة الشيخ العلامة محمد إبراهيم الجُونَاكَرِي[1] -صاحب الترجمة المعروفة لمعاني القرآن الكريم المطبوعة في مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة-، والشاعر الشيخ عبدالله الندوي وغيرهما. ولا شك أن لهذه البيوتات العلمية والدعوية والفكرية أثرها الواضح على أبنائها. وحين كان الشيخ عزير شمس في "مدرسة الفيض العام بِمدينة مؤو" كان يرتاد -وهو صغير- مكتبة هذه المدرسة أيضًا.

كما أن شغل عمه الشيخ عين الحق السلفي منصبَ الأمين العام لمكتبة المدرسة الأحمدية السلفية لعدة عقود كان عاملا آخر من العوامل التي حببت إلى الراحل العلم والثقافة والقراءة والمطالعة حبا جما؛ حيث كان يتردد على هذه المكتبة كثيرا؛ لكي يعبّ ويعلّ من ذخائر الكتب الموجودة فيها، ويدرس على عمه النحو والصرف وقواعد اللغة العربية بالأُوردُو.[2]

المبحث الخامس: "...فَاحْفَظْ؛ فَكُلُّ حَافِظٍ إِمَامُ"[3]:

ومن أهم الأسباب التي لعبت دورا كبيرا في تكوين شخصيته العلمية والفكرية: حرصه الجم على حفظ العلوم وبخاصة الأشعار وبمختلف اللغات: الأردية والعربية والفارسية وغيرها. يقول -رحمه الله تعالى- وهو يسترجع شريط أيام دراسته في الطفولة:"كنا نحفظ بعض أجزاء القرآن الكريم وبعض القصائد والمنظومات باللغة الأردية."[4] ونجد صدى كلامه هذا مكررا في كل ما كتبه أو حاضَرَ به بين الطلاب وغيرهم فيما يتعلق بأصول التعلم وطرائق التحصيل العلمي وشروط الكسب المعرفي خاصة في أيام الطلب والدراسة.

والحق أن هذا هو الأسلوب الأمثل والناجع والمجدي ثمارا ومنافعَ للتحصيل العلمي والتكوين المعرفي لدى الطلبة. وهو أسلوب يمكن تسميته بـ"القراءة من غير النسيان":{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}.[5] ولا إخالُ ينكر هذه الطريقة -في حق معظم العلوم الإسلامية والعربية- إلا من ليضطلع بالمعرفة الكافية عن

(1)**الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم** الجُوناكرهي الغُجرَاتي، كانت ولادته عام (1890م) بمدينة جوناكرْه، بولاية غوجرات، غربي الهند. كان عالما نحريرا لا يكاد يوجد له نظير، وخطيبا لا يُشق له غبار في الفصاحة والبلاغة. توفي رحمه الله تعالى في عام 1941م.

(2) انظر: برنامج: أوراق العمر، الحلقة 13، https://www.youtube.com/watch?v=-kuUd42mCHE

(3) عجزالبيت الثلاثين من متن المنظومة الرحبية في علم المواريث، للإمام موفق الدين أبي عبدالله محمد الرحبي.(انظر: رسالتان في علم الفرائض: الحجج القاطعة في المواريث الواقعة، والسبيكة الذهبية على المنظومة الرحبية، فيصل بن عبدالعزيز المبارك، تحقيق محمد بن حسن المبارك، ط/1، 1427هـ دار كنوز إشبيليا، الرياض، ص 22.)

(4) انظر: برنامج: أوراق العمر، الحلقة 12.

(5) سورة الأعلى، الآية 6.

مسيرة التعليم والتربية ونشاط الفكر والإبداع والابتكار عبر التاريخ.

إنه لم ينبغ من نبغ من العلماء والمفكرين والفقهاء والكتاب، ولا بزغ نجمه إلا بعد ما بذل جهدا وكدا في القراءة والاطلاع والحفظ في سائر الأوقات وفي كل الظروف والأحوال. وهو سر نبوغ كل الشعراء والأدباء قديما وحديثا.

والشيخ محمد عزير شمس -رحمه الله تعالى- ما كان لتخفى عليه هذه الحقيقة؛ لذلك نلاحظ أنه كثيرا ما يردد هذه الأسماء في مجالسه ومحاضراته، ونراه كذلك يوصي الطلاب وأهل المدارس والكليات بضرورة التركيز على حفظ النصوص اللغوية والأدبية، وهو يكرر هذا الموضوع، ويبدئ ويعيد فيه كلما سنحت له فرصة؛ ذلك لكونه حساسًا ومهمًّا؛ لأن هذه الطريقة والمنهجية هي التي -في الحقيقة- تكوِّن لدى الطالب السليقة والملكة اللغوية، وتجعله قادرا على التعبير والتحدث من دون أخطاء، أو تلكؤٍ وتلعثم، ومن ثم ممارسة الكتابة والإنشاء كأهل اللغة أنفسهم.[1] كما أن الشيخ لا يخفي - في ذات الوقت- تذمره من مسيرة تلكم المدارس والكليات بشبه القارة الهندية وأصحابها الذين يعيشون من ناحية أساليب وطرق التعليم والتربية في واد والعصر الذي يتنفسون فيه في واد آخر![2]

ويقول الشيخ في بعض أحاديثه الإذاعية وهو يتحدث عن تكوينه العلمي ونشأته اللغوية أنه درس في المدارس كتبا عديدة في اللغة والأدب والتعبير والإنشاء، مثل كليلة ودمنة لابن المقفع، وديوان الحماسة لأبي تمام، وديوان المتنبي والمعلقات السبع وكتاب المختارات للسيد أبي الحسن الندوي،وكتاب معلم الإنشاء وغيرها.[3]

ولا شك أن هذه الكتب والدواوين والمجموعات تعتبر مصادر مهمة -أو مستقاة من المصادر- في اللغة والأدب. ولكن مجرد قراءتها من خلال ترجمتها إلى اللغة الأردية لا يمكنه تكوينُ مهارات لازمة للتعبير الكتابي أو الشفوي لدى الطالب، ناهيكم أن يكوِّن لديه ذوقا لغويا أو أدبيا، هذا إذا تم دراستها بحذافيرها دراسة تحليلية،ولكن الواقع -كما صرح بذلك الشيخ في غير ما مناسبة أو محاضرة أو مقال أو مجلس مفتوح- أن معظم الكتب اللغوية والأدبية المقررة لا يستطيع المدرس -على مدى عام دراسي كامل- إنهاء المفردات أو المباحث المقررة منها للتدريس. والعوائق في ذلك متعددة أبرزها أن الطلاب -أو جلهم- لا يرغبون في إنهائها، ولهم أعذارهم المعروفة، كما أن المدرس لا ينشط -هو الآخر- لإنهاء المفردات المقررة في الكتب الدراسية طالما

(1) انظر: مقالات الشيخ محمد عزير شمس، ص 525.

(2) انظر: مقالات الشيخ محمد عزير شمس، ص 154-158 . هذا وإني أستغرب وأتعجب من أن نداء الشيخ هذا لم يجد له صدى يُذكر في مخيلات أرباب تلكم المدارس والكليات حتى اليوم، مع أنه قد أطلق هذا النداء الحار منذ عام 1984م، أي قبل أربعة عقود تقريبا!

(3) انظر: برنامج: أوراق العمر، حلقة 12.

أن الطلاب هم لا يريدون ذلك، بل إن بعضهم يعارض بشدة المضي قدما في تناول الأبواب أو الدروس الجديدة من تلكم الكتب، بل الطامة -كما قال الشيخ الراحل في إحدى مقابلاته- "أن أغلب الطلاب كانوا يستثقلون دراسة الأبيات العربية التي تتخلل بعض الكتب الدراسية وشرحها."[1] متذرعين بأنها صعبة، وأن بمقدورهم فهم الدرس من غير تلكم الأبيات الشعرية. وهنا لا يبقى لبعض الطلاب الجادين إلا أن يشمر هو بنفسه عن سواعد الجد والاجتهاد؛ فيعلم ويثقف نفسه بنفسه ولا يؤمل من غيره الكثيرَ.

ولعل في حادثة الإمام عبدالعزيز الميمني الراجكوتي[2] عبر عديدة؛ الذي كان قضى سنين ثلاثًا بتمامها بداخل بعض المدارس الإسلامية بمدينة دلهي، وهو يحاول ويسعى ويجد ويكد لأجل تعلم علوم اللغة العربية و إتقانها، ولكن دون جدوى، فقد عجز عن فهمها، بله عن إتقانها، على ما كان لديه من رغبة عارمة وتوق مشبوب إلى التضلع باللغة العربية وعلومها. وحين أحاط به نوع من اليأس إحاطة السوار بالمعصم، ودَّع المدرسة نهائيا، كارهًا التعلم بهذه الطريقة التقليدية والعتيقة، فتوجه بنفسه صوب كتب اللغة ومصادر فقهها ومنابع نصوصها الأدبية، وبدأ يقرأها، ويداوم النظر فيها، ويحفظ ما يَسْتطِيع حفظه؛ فاسْطَاعَ بذلك ليس فقط تذليل كل الصعوبات والعو ائق التي اعترضت طريقه إلى تعلم العربية و إتقانها، و إنما أيضًا أن يبز حتى أساتذة اللغة أنفسهم، وأن يتفوق حتى على صناديد الأدب والشعر في عصره وقطره.

ويُخيل إلي أن هذا هو المنهج الذي اختطّه فضيلة الشيخ الراحل لنفسه؛ أقصد أنه عمل جاهدا على تعليم نفسه وإرواء غلته وإشباع نهمه خارج إطار المناهج التقليدية بداخل جدران الصفوف الدراسية. وهو قد أشار إلى ذلك في بعض مقابلاته؛ حيث يقول في إحداها أنه أولع باللغة العربية منذ الصغر، فكان يتتبع الأبيات الشعرية العربية؛ لكي يدرسها دراسة تحليلية ويتذوق ما تحويه من معان و أفكار وقيم لفظية وأسلوبية وتعبيرية وغير ذلك.[3] لأن فرصة تحقيق هذه الرغبة كانت -ولا زالت- عنقاءَ في جل المدارس الهندية.

وإن اهتمام الشيخ باللغة والأدب شب واشتد عودها وصار يؤتي أُكُله وهو في الجامعة السلفيةالتي تضم مكتبة شيخ العربية الأستاذ عبدالمجيد الحريري رحمه الله تعالى، كما كانت هناك رو افد أخرى للغة العربية والأدب في جنبات هذه المكتبة، تمدها بالروح وتضخ في شرا يينها الدماء، وأهمها تلكم المجلات والصحف والجرائد التي كانت تأتي من الدول العربية، وبخاصة الخليجية، فكان الشيخ يطلع عليها باستمرار ويقبل عليها بنهم، وكأنما يجد فيها غذاءه طازجا وقوته لذيذا ومفضلا لديه.

---

(1) انظر: برنامج: أوراق العمر، حلقة 12.

(2)الميمني: الإمام العلامة عبدالعزيز بن عبد الكريم بن يعقوب الميمني الراجكوتي، (1888 - 1978)، حجة العروبة وجوهرتها في شبه القارة الهندية، وأديب كبير وشاعر ولغوي نحرير،ذو معرفة وخبرة واسعة بالمخطوطات العربية والإسلامية.(انظر: مقال "عبد العزيز الميمني إحدى مفاخر الحضارة الهندية الإسلامية" المنشور في مجلة نداء الهند الإلكترونية، http://www.nidaulhind.com/2016/03/blog-post_27.html

(3) انظر: برنامج: أوراق العمر، حلقة 12.

ومن آرائه الجميلة في هذا الخصوص أنه مهما تعلم الطالب أي علم أو فن، و أتقن أي لغة من اللغات بنفسه غير أن تعلم العلوم والفنون من أفواه أهلها مباشرة، وتلقيها منهم بالسماع هو الطريق الأمثل والأفضل والأجدى نفعا لإتقان أهم المهارات اللازمة في سائر تلكم العلوم والفنون وخاصة اللغوية منها، من ناحية التكلم والتعود على التعبير الشفهي الصحيح.[1] وهذا ما فعله الشيخ حين منَّ الله سبحانه عليه بالقبول بالجامعة الإسلامية؛ حيث فضل الالتحاق بكلية اللغة العربية، واعتذر عن الدراسة في الكلية التي اختارها له المسؤولون في عمادة القبول والتسجيل بالجامعة الإسلامية آنذاك.

ولكي نعرف كيف تؤتي القراءة المكثفة ثمارها عاجلا أن الشيخ -رحمه الله تعالى- أعد كتابه عن الشيخ المُحدث شمس الحق العظيم آبادي وهو في السادسة عشرة من عمره؛ معللا ذلك بأنه قرأ كثيرا عن هذا الإمام رحمه الله تعالى، فتجمَّع لديه من المعلومات والمعارف حوله الشيءُ الكثيرُ؛ فأبت تلك المعارف والأفكار أن تظل حبيسة رأسه؛ فسالت على القرطاس، وقد ساعده في ذلك توجيهات كريمة من والده الكريم.[2]

وبما أنه -رحمه الله- كان استطاع تزويد نفسه بقدر جيد وكافٍ وجميل من مهارات اللغة العربية من كافة النواحي، فظهر أثر ذلك مبكرا في شكل ترجمة أحد كتب الشيخ المحدث شمس الحق العظيم آبادي في موضوع "حكم المعانقة والمصافحة بعد العيد" إلى اللغة العربية، وقد نشرت هذه الترجمةسنة 1975م في مجلة صوت الأمة الصادرة من الجامعة السلفية، ببنارس.

وحين لاحظ عليه بعض أساتذته مخائل النجابة وسعة المعرفة وغزارة العلم والحرص الجم على تتبع مصادره وارتياد مجامعه إضافة إلى امتلاكه المهارات اللغوية العالية، والقدرات الرائعة على الكتابة والتعبير وجَّهه إلى أن يعتني بصقل قدراته وشحذ مهاراته، ومن ثم خوض ميدان الكتابة والتأليف بكل همة وأريحية واطمئنان وبخاصة في اللغة العربية.

وأعتقد أن رأي الشيخ -رحمه الله- هذا له علاقة بالمثل العربي المعروف القائل: "وكُلُّإِنَاءٍ بِالَّذِي فِيه يَرشَحُ."[3] فلكي يترشح الإناء يجب أن يمتلئ أولا، وإذا امتلأ ماءً، أي تكونت لدى الطالب طاقات فلا بد لها من فيضان و انصباب أو استفراغ، بغض النظر عن مشيئة المالئ من عدمها. ويشير إلى ذلك أيضًا مثل عربي آخر: "قَبلَ الرِّمَاية تُملَأُ الكَنَائِنُ." فالقراءة وقود الكتّاب والمؤلفين، وزاد الأدباء والشعراء وقوت المبدعين، وهم في ذات الوقت نتاج قراءاتهم وتعلمهم ومطالعاتهم، ولئن لَم تُستعمل وتستغل تلك الطاقات فإنها قد تموت وتفنى فتذهب للأبد أو يصاب الإنسان بنوع من الجنون والخبال بسبب عدم إفراغ وإخراج تلكم

---

(1) انظر مقالات الشيخ محمد عزير شمس، ص 113.

(2) انظر: برنامج: أوراق العمر، حلقة 14.

(3) صدره: "ويأبى الذي في القلب إلا تبينا"، البيت للشاعر كشاجم، في ديوانه، ص 92، تحقيق الدكتور النبوي عبدالواحد الشعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/1، 1417هـ

الطاقات الهائلة وتخفيف الدماغ منها. "والقراءة والكتابة من الظواهر الملازمة لبعضها،وهما تكوّنان شخصية تتصف بقدرات التميز والإبداع، ومهارات التفكير السليم. أما القراءة بصفة خاصة فهي التي تعدّ المولّد الأول للتخيّلات، والأفكار."[1]

ولا شك أن كل ذيّالك كانت تتصف وتتميز وتفيض به شخصية الشيخ الراحل -رحمه الله تعالى- في أعلى المستويات و أتم الدرجات. ولم ينقصه كذلك جانب الذكاء والفطنة مع جِد واجتهاد، كما شهد له بذلك زميله فضيلة الشيخ صلاح الدين بن مقبول أحمد -وفقه الله ورعاه-؛ حيث قال بأن المركز الأول بين زملائنا كان -دائمًا- شبه محتكر للشيخ عزير شمس، لا يجاوزه إلى غيره إلا نادرا[2]، ولا ينازعه فيه إلا نادرون.

❁❁❁

المبحث السادس: "كَادَ المُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولا"[3]:

ومن مقومات الثراء العلمي والنماء الفكري والوفرة الثقافية في شخصيته أنه حظي بأساتذة ومشايخ أكفاء يشار إليهم بالبنان، وتنتعش بهم أو بذكرهم الطيبِ المجالسُ العلمية والمحافل الأدبية، كما حظي أيضًا بكوكبة من الزملاء ممن كانوا يخضمون أو يقضمون المعرفة معه ويقتاتون عليها مثله، ويتمتعون بروح التنافس الشريف والسباق الجميل الباهر في التعلم والطلب والتحصيل.

فمن أبرز شيوخه -خارج القاعات الدراسية- فضيلة الشيخ الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهري (ت 2009م) -رحمه الله- الذي كان له باع طويل في اللغة العربية ومعرفة واسعة بآدابها، وقد رأس تحرير مجلة صوت الأمةلسنوات طوال، وهو الذي وجه هذا التلميذ الرشيد -الشيخ محمد عزير شمس- إلى الكتابة والتأليف باللغة العربية. وقد امتدحه الراحلُ كثيرا في مقال دبجه إثروفاته.[4]

وكثيرا ما نرى الشيخ الراحل يكررذكرى العلامة محمد حنيف الفوجياني (ت 1987م) بأسلوب يفيض مشاعر صادقة واحترامًا بالغًا له، ومنبهرًا بعلومه ومعارفه، وتقديرًا عظيمالشخصيته، وإعجابًا بمكارم أخلاقه وشمائله الطيبة وسيرته العطرة، وهو إذ يغبطه في كل ذلك لا يتمالك صوته من التهدج وعينيه من الهمي والارفضاض.

1-The Relationship Between Writing and Reading", www.www2.ncte.org, Retrieved 24-6-2018. Edited. وانظر: Reading and Writing (Literacy)", www.asha.org, Retrieved 24-6-2018. Edited ،

(2) انظر: مقال الشيخ صلاح الدين مقبول المنشور على موقع Freelancer باللغة الأردية، بعنوان: الأخ العزيز محمد عزير شمس، أخوة وزمالة تتجاوز نصف قرن.

(3) عجز بيت لأمير الشعراء أحمد شوقي، وصدره: "قُم لِلمُعلِّمِ وَفِّــهِ التَّبجِيْــلَا". (انظر ديوانه، دار صادر بيروت، د.ت، : ج1، ص 188.)

(4) انظر مقاله عن الدكتور العلامة مقتدى حسن الأزهري، في كتابه:مقالات فضيلة الشيخ محمد عزير شمس، ص 585.

أما أصحاب الفضيلة الشيوخ الذين تتلمذ عليهم بداخل الصفوف الدراسية، وكان لهم تأثير على صياغة شخصيته العلمية والفكرية فمن أبرزهم: محمد رئيس الندوي، وعبدالسلام الرحماني؛ وصفي الرحمن بن عبدالله المباركفوري؛ وعبدالنور بن عبدالعظيمالبستَوي الندوي، الذي تأثر الشيخ به كثيرا؛ لأنه كان يتعامل مع الطلاب باللغة العربية تكلما وتدريسا، ويرغبهم فيقراءة القصائد والأشعار، كما كانيحللها لهم تحليلا شاملا بأسلوب جميل ومشوّق، ومن أستاذته كذلك:هادي الطالبي، الذي كان مدرسا للعربية في الجامعة السلفية،وعبد الوحيد الرحماني الذي تولى رئاسة الجامعة السلفية؛ والأمانة العامة لجمعية أهل الحديث المركزية لعموم الهند، وكان من العلماء المتميزين في العلم والسلوك في عصره، وعبد السلام البستَوي؛ والأستاذ الدكتور طه مصطفىأبو كريشة، الذي أثنى الراحلُ كثيرا عليه بما كان يلتزم أثناء التدريس بالفصحى ويتمتع بقدرات فائقة ومهارات عالية في أساليب التدريس وشرح وتحليل النصوص اللغوية شعرا ونثرا، وعبد العظيم علي الشناوي، وعبد العزيز محمد فاخر، وأحمد محمد عزب -وكان ناقدا وأديبا-وعبد الباسط بدر، وعلي بن ناصر فقيهي، وغيرهم.

والحق أن هؤلاء الشيوخ والأستاذة الكرام يعتبر كل واحد منهم فارس مضماره؛ فقد تميزوا في جميع العلوم والفنون التي خاضوا غمارها، كما برزوا في إنتاجهم العلمي والفكري الغزير، متمثلا في العديد من الأبحاث العلمية أو المقالات والمؤلفات القيمة وغير ذلك.

❁❁❁

المبحث السابع: "للهِ دَرُّ عُصَابَةٍ نَادَمْتُهم..."[1]:

أما الأقران وزملاء الدرس الذين حظي الشيخ برفقتهم وكانوا بمثابة مهماز له في الاستزادة والطلب والحرص الجم على التحصيل العلمي فمنهم أصحاب الفضيلة الشيوخ: الدكتور رضاء الله محمد إدريس المباركفوري، محقق كتاب العظمة لأبي الشيخ، والشيخ صلاح الدين بن مقبول أحمد، صاحب تصانيف جميلة ونافعة باللغة العربية، بالإضافة إلى كونه شاعرا مطبوعا باللغة الأردية، والدكتور بدر الزمان بن محمد شفيع النيبالي، -محقق كتاب "ردّ الانتقاد على ألفاظ الشافعي للبيهقي"- والدكتور عبدالقيوم بن محمد شفيع البستَوي.

ومن المصادفات الجميلة أن هؤلاء الخمسة -المشار إليهم أعلاه- اجتمعوا في المرحلة الثانوية في الهند ولم تفترق بهم مناكب الحياة إلا بعد التخرج في مختلف كليات الجامعة الإسلامية بمدينة رسول الله ﷺ.

ومن هؤلاء الأقران كذلك الشيخ شهاب الله بن جَنْك بَهَادِر البستوي، -مؤلف وباحث، وسعادة الشيخ عبد الله سعود بن الشيخ عبدالوحيد الرحماني البنارسي، أمين عام الجامعة السلفية، بنارس حاليا وغيرهم.

(1) صدربيت من قصيدة لحسان بن ثابت رضي الله عنه، وعجزه: يَومًا بِجِلَّقَ فِي الزَّمانِ الأَوَّلِ.(انظر ديوانه، بتحقيق عبد مهنأ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة2، 1414ه، ص 184.

والحق أن من رزق بزمالة مثل هؤلاء الرفقة الصالحة والرهط المبارك فكأنما حيزت إليه العزيمة الماضية برمتها، وسيقت إليه الهمة الشحيذة بحذافيرها، وأشعلت فيه الجذوة من غضاها. ومما يدل على النبوغ والتميز العلمي، خاصة لدى هذا الخماسي النبيل أنهم حصدوا واستولوا على المراكز الأولى في كلياتهم بالجامعة الإسلامية منذ السنة الأولى، مع أنهم تأخروا في الوصول إلى الجامعة والانتظام في الدراسة كثيرا؛ وذلك بسبب تأخرهم في استكمال إجراءات السفر في بلدهم الهند.

❁❁❁

المبحث الثامن: { لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا }[1]:

ومن أهم رو افد تكوين شخصيته العلمية والفكرية أنه -رحمه الله- واصل بعد التخرج رحلته التعليمية، ولم ينشغل أوينقطع لمهنة التدريس أو أي وظيفة أخرى، و إنما توجه صوبَ بعض المكتبات لإرواء ما لم يرتو من غلته العلمية، وما لم ينطفئ من نهمه الفكري وهيامه الثقافي. يقول: "لم يكن غرضي من التحقيق التحقيقَ لذاته وإخراجَ الكتب وطباعتَها، و إنما كان الغرض الأول هو الإفادة منها والاطلاع عليها وقراءتها؛ ولذا لم أنشر كثيرًا من الكتب التي حققتها وكنت أتوقف عن العمل في شيء سبقت إليه."[2]

فشد بعد التخرج رحاله قاصدا المكتبات الرئيسة في الهند، مثل مكتبة "خُدَا بَخْش خان" بمدينة بَتْنَهْ عاصمة ولايته بيهار، وهي كانت -وما زالت- تزخر بنوادر من المخطوطات العربية والإسلامية، إضافة إلى أنها كانت تضم بين جنباتها مكتبة المحدِّث الشيخ شمْس الحق العظيم آبادي، وقد استطاع -رحمه الله- أثناء عمله في هذه المكتبة نسخ العديد من المخطوطات العربية -وبعضها من النوادر- بخط يده. وزاركذلك مكتبة "دار المصنفين" ومكتبة دار العلوم ندوة العلماء بمدينة لكناؤ، وقبل ذلك استفاد أيام الطلب -كما سبق- من مكتبة المدرسة الأحمدية السلفية، ثم من المكتبة المركزية بالجامعة السلفية التي كانت تضم مكتبة العلامة محمد يوسف السورتي، ولم يدع مكتبة إمام العربية وحجتها العلامة عبدالعزيز الميمني حتى لاحقها وهي في باكستان، بجامعة السِنْد.

وحين التحق بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة فكأنما كانت هذه المهمة في انتظاره هنالك أيضًا؛ حيث أسند إليه فضيلة الشيخ العلامة حماد بن محمد الأنصاري (ت 1418هـ) مهمة عمل فهرسة المخطوطات بالمكتبة المركزية للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة -وفي جنباتها التقى بالإمام المحدث محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى (ت 1420م)، إضافة إلى زيارته وارتياده العديدَ من المكتبات العالمية في مختلف دول العالم و بخاصة دول الخليج و باكستان، وتركيا و مصرو الشام و بلاد ما وراء النهرو بعض الدول الأوروبية.

---

(1) سورة الكهف، جزء من الآية: 60 .

(2) انظر: برنامج: أوراق العمر، حلقة 16.

كما أعد أيضًا فهارس المخطوطات بمكتبة جامعة أم القرى، إضافة إلى صنعه فهرسا للمخطوطات بمكتبة الحرم المكي الشريف.[1]

و إن الحصيلة العلمية والثروة الثقافية والفكرية هذه لم يمتلكها الشيخ وهو يسلك طريقا مفروشة بالورود و الزهور، و إنما حصل عليها وهو يطأعلى شوك من قتاد، ويصطلي بجمر من غضا؛لقد اتَّخذ من المكتبات بيتَه الثاني، وفيها يُحس بالراحة النفسية والطمأنينة القلبية،وهو يسامر العلماء،ويناجي الفقهاء،ويحادث الأدباء، ويناقش فطاحل الرجال في كل علم وفن، حتى أنه –رحمه الله تعالى- كان إذا غلبه لغوب، وداهمه نعاس اتَّخذ من بعض الكتب وسادةً، أولوى ذراعه، فاتكأ على كفها، واستلقبين رفوف المكتبة.

وظلت هي عادته –عليه رحمة الله- حتى فارق هذه الحياة؛ فقد كان إذا نزل إلى بلده وخاصة إذا زار جامعته الأم –الجامعة السلفية بمدينة بنارس، لم يمكث في دار الضيافة إلا ريثما يفرغ من حاجاته الأساسية، لكي يتوجه بعد ذلك مباشرةً إلى المكتبة المركزية بالجامعة ويطلع على الجديد فيها.

هذه هي أهم المقومات –من منظوري- التي أسهمت في صياغة شخصية الشيخ الراحل رحمه الله تعالى، وتلكم هي أبرز الرو افد والسواقي التي انصبَّت وتناخست إليها، فنشأ وتشكل بكل ذلك هذا البحر العلمي والخلقي والإبداعي الزخَّار الذي دخل التاريخ من أوسع أبو ابه مشتهرا باسم "الشيخ عزير شمس" عليه شآبيب رحمة الله ورضو انه إلى يوم الدين.

الفصل الثاني:

أهم الآراء اللغوية للعلامة محمد عزير شمس

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تلميح إلى أن آراء الشيخ نابعة عن شخصية اعتبارية وثقة:

من البديهي أنه بعد جولات الشيخ -رحمه الله- وصولاته الواسعة في ساحات جل العلوم والفنون، والسياحة في عوالم المعارف والأفكار لا بد أنها سوف تتمخض عن نتاج علمي غزير، بما فيه من آراء رائعة و أفكار بديعة، وقد تبدو بعضها لبعض العلماء والمثقفين -لأول وهلتها- جديدة أو غير مألوفة، ولكنها على كل حال تأتي من شخصية موسوعية واعتبارية، لها مكانتها وجلالتها وقيمتها ووزنها، وقد سبرت أغوار معظم العلوم والمعارف والفنون ملتزمةً في ذلك بخطوط رحلتها ومسيرتها التاريخية من حيث نشأتُها وترعرُعُها ونضجُها ومن ثم اكتمالُها.

ولن يكون من العدل والنصف في شيء لو نُظر إلى هذا الشخص العظيم على أنه خريج كلية اللغة العربية

(1) انظر: برنامج: أوراق العمر، حلقة 15.

أو أنه لَم يتخصص في الشريعة أو الفقه أو الحديث أو غير ذلك، وبالتالي الظن والتخمين بأن آراءه العلمية ليست بذاك، أو أنها تفتقر إلى مصداق من الفقه والحديث والتفسير وأصولها، ونحو ذلك. والحق أنه -رحمه الله- رجل الشريعة والحديث بكافة فروعهما العلمية في المقام الأول، استهل بها حياته وقضى يدندنُ حولها شبابه، ثم نذر لها من بعدُ بقية حياته، إلى أن لحق بمولاه -سبحانه وتعالى- وهو على تلك الجادة المستقيمة والمحجة البيضاء، ليلها كنهارها.

أما التحاقه بكلية اللغة العربية فما هي إلا مرحلة عابرة ومؤقتة؛ وذلك لأجل أن يتقوى ويتزود -أكثر- من الوسائل الضرورية والأدوات اللازمة مما يسيطر به على تلك العلوم، ويتمكن من نواصيها، وما يعينه على فهم الأساليب العربية في كافة العصور وخاصة العصور المتقدمة التي كانت عربيتها حجة لفهم كلام الله سبحانه وكلام رسوله عليه أفضل الصلاة و أتم التسليم.

وبالإضافة إلى ما سلف، فهناك سبب آخر مهم ومعقول جدا لالتحاقه بكلية اللغة العربية؛ ألا وهو أن طلاب شبه القارة الهندية كان لديهم -وبخاصة في ذلك الزمان الغابر، ولا زالت ارتداداته مستمرة إلى اليوم- عزوف شديد عن اللغة العربية وعلومها وآدابها. وإن قلت "سوء ظن بعلوم اللغة العربية والخوف والتوجس منها" بدلا من "عزوف شديد" لَما كنت مبالغا في ذلك أو مجانبا الحق والصواب.

ومثل الشيخ -رحمه الله- في هذا الأمر و الاختيار مثل العديد من اللغويين القدامى ممن كانوا في الأصل علماء الشريعة أو قضاةً أو محدِّثين أو مفسِّرين ...الخ غير أن فرعا معينا من فروع علوم اللغة قد غلب الاهتمامُ به عليهم؛ فلصق بهم، وعرفوا به، وتناسى الناس ما سوى ذلك، و أبرز مثال لتلك الظاهرة: القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت 392هـ)، الذي عرف بكتابه العظيم في النقد الأدبي: "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، وكأنه لم يؤلف في أي علم أو فن آخر غيره، والإمام عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني (ت 471هـ) الذي كان مفسرا وفقيها شافعيا. أما أقرب مثال لذلك فهو الإمام محمد مرتضى الزَّبيدي البَلجَرَامي الهندي (ت 1205هـ) صاحب معجم "تاج العروس من جواهر القاموس"، فهو في الحقيقة مُحدِّث وفقيه، وهو من تلامذة الإمام المجدد المصلح ولي الله المحدِّث الدهلوي (ت 1176هـ)، رحمهما الله تعالى، غير أنه لا يكاد يعرف اليوم إلا مقرونا بكتابه في اللغة: "تاج العروس..." فقط.

هذا، وكان الشيخ الراحل يعلم -كغيره من علماء السلف من أمثال الإمام أحمد بن فارس الرازي القزويني وسواه- علم اليقين أن التفقه في الشريعة يجب أن يسبقه التفقه في اللغة العربية. وإلا فسيأتي النتاجُ خداجًا والغمام جهاما.كما يشهد بذلك الو اقع المزري لدى العديد من الطو ائف والجماعات. ومن المعلوم أن الإمام المفسر الفقيه اللغوي الفذّ أحمد بن فارس القزويني، صاحب معجم فذ "مقاييس اللغة" كان يتذمر جدا من بعض من كان يشتغل بعلوم الشريعة، ولا يمتلك الأدوات اللازمة لمزاولة تلك المهنة الشريفة، وبخاصة إتقان اللغة العربية، التي تترتب عليها مسؤوليات جسيمة أمام الباري سبحانه وبريَّته أيضًا، فكان

الإمام ابن فارس يلفت جاهدا انتباه بعض أولئك العلماء الذين كانوا يحلو لهم التلقب بألقاب فخمة مثل "الفقيه" و"المفتي" و"المحدث" ونحوها وهم في الحقيقة لا يستأهلونها؛ لما كان يصدر منهم من هنات في اللغة والتعبير، حتى أنه ألف في ذلك كتبا ورسائل ومسائل في اللغة يُعايي بها الفقهاء، ومنه اقتبس الحريري في "مقاماته" الأدبية ذلك الأسلوب. ولا تخلو تلكم الرسائل والمسائل من لهجة التهكم بأمثالهم ونبرة الغضب والتبرم منهم. والسؤال الذي قد يثور هنا لِمَ كان الإمام القزويني يشدد النكير بأسلوب شديد على أولئك العلماء؟ والجواب -من وجهة نظري- أنه كان مستيقنًا في قرارة نفسه أن ما يقوله هو الحق وعين الصواب، وأن ما يسلكه بعض الفقهاء والعلماء في عصره من الطريق لا يخلو من شطط واعوجاج، ومع ذلك لا يكادون يفقهون قوله، أو لا يعيرون له أي اهتمام، فكان من البديهي أن الإمام سوف يعتريه الغضب لسببين مشار إليهما أعلاه!

وهكذا كان الشيخ العلامة محمد عزير شمس، فقد طالما رثى الحالة المزرية التي سقط في دركها الكثير من العلماء والفقهاء والعلَّامات والمفتين والكتَّاب والمؤرخين والمؤلفين - خاصة في شبه القارة الهندية - من ناحية التفقه في اللغة العربية وفهم كنهها وإدراك مراميها، وهذا الذي كان يثير حفيظته رحمه الله تعالى. وإن بعض ردوده خير شاهد على ذلك، وبخاصة ما رد به[1] على الكاتب الشيخ محمد صبيح الدين الأنصاري -رحمه الله تعالى- في مقالاته حول "مفهوم خليفة الله" التي نشرت على صفحات مجلة "التوعية" العريقة الصادرة من "مركز أبو الكلام آزاد للتوعية الإسلامية، بنيو دلهي"، في تسعينات القرن المنصرم، في عدة حلقات. فأسلوب الشيخ محمد عزير في نقده لهذه المقالات لا يخلو -أحيانا- من نوع من القسوة والتهكم بالكاتب هنا وهناك، وسبب ذلك أن الكاتب الفاضل تصدى لمهمة ما كان يحسن صنعتها، وسعى إلى هيجاء لم يمتلك أوزارها وأدواتها! فغلط وغالط، وجاءت النتائج التي توصل إليها -في بعض ما يعده الشيخ شمس من البديهيات- خديجةً بل خاطئةً؛ وذلك لقصر باع الكاتب في العربية وأساليبها، مما جعل الشيخ شَمْسًا-رحمه الله تعالى- تأخذه غيرة على اللغة العربية، فيغضب، ويعيد قراءة كل يتعلق بهذا الموضوع ويغربل مئات الكتب فيفند رأي الكاتب في ضوئها تفنيدا لم يترك لغيره ما يضيفه إلى ذلك الموضوع حتى حين.

ويتجلى بهذا أن للشيخ عزير شمس استنباطات واستنتاجات علمية أصيلة، وقناعات وتقارير راسخة، وآراء فقهية رصينة في بعض المسائل والنوازل أيضًا، كما أن له وجهات و اتجاهات خاصة إزاء بعض العلوم والفنون اللغوية وما يتعلق بها. ولا يمكن هنا -لطبيعة الظرف والحال- التطرق إليها كافةً، وبخاصة ما جاء فيه رأيه الفقهي مخالفا للآراء المعروفة أو الفتاوى المشتهرة قديما أو حديثا، فذاك موضوع سوف يتناوله بالبحث والدراسة المتخصصون في الدراسات الإسلامية، أما أنا فسوف أشير هنا إلى بعض آرائه ومو اقفه -

(1) انظر: مقالات فضيلة الشيخ محمد عزير شمس، ص 462-520.

فقط- فيما يتعلق ببعض فروع اللغات وخاصة اللغة العربية وآدابها وعلومها وفنونها.

❁❁❁

المبحث الثاني: رأي الشيخ في قضية تجديد اللغة العربية:

يرى الراحل -رحمه الله تعالى- في هذا الصدد ضرورة دوران عجلة التجديد المستمر للغة العربية، وتحديث أساليبها و ابتكار صيغ وقوالبجديدة للكلمات العربية أو إحياء الموات منها،واستحداث معانٍ ودلالات جديدة لها، كلما دعت إلى ذلك حاجة وتطلبتها ظروف وضرورة، شأنها في ذلك شأن أي لغة في العالم؛ وبخاصة إذا كانت ذات رسالة وأهداف. ولقد صنف الراحل -رحمه الله تعالى- العلماء تبعا لمو اقفهم في هذه القضية إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: أهل الإفراط والغلو، وهم الذين يعتبرون كل أسلوب عامي وصيغة جديدة ومعنى طريف أنه من الصحيح والفصيح.

الصنف الثاني: أهل التفريط، وهم الذين لا يقيمون لأي أسلوب جديد أوكلمة مبتكرة أو صيغة مخترعة مما لا تتضمنه المعاجم القديمة.. أي وزن ولا يعيرونه أي اهتمام ولا اعتبار أو قيمة، ويحكمون -بالتالي- عليه بأنه مولَّد أوعامّي، ولا ينبغي الاعتماد عليه بأي حال. وكأنه ليس من العربية في شيء.

الصنف الثالث: أهل الوسطية بين الغلاة والجفاة. وهذا هو المسلك الذي يرتضيه الشيخ رحمه الله تعالى؛ قائلا عن المسلكين السابقين:

كلا طرفيِ قَصدِ الأمورذميمُ[1]

فاللغة -كما يقول الشيخ- كائن حي يتطور، ولا بد من تعاهده بالرعاية والنماء، فكبار الكتاب والعلماء والمجامع اللغوية إذا استعملوا أو أقروا بكلمة أو أسلوب فهي مقبولة، وينبغي العمل بها، مثل كلمات: "تأشيرة" و"تأجير"، فهما بهذا التصريف والاستعمال غير موجودتين في القواميس والمعاجم اللغوية القديمة، ولكن الضرورة اقتضت اختراع هذه الصيغ بهذه المعاني التي لم تكن موجودة لدى الغابرين.[2]

وأرى أن رأي الشيخ -رحمه الله- هو عين الصواب في هذا الموضوع؛ لأننا لو لَم ننتهج هذا المسلك فنكون بذلك قد حكمنا على اللغة العربية بالجمود والعقم وعدم صلاحيتها للتوليد والتكاثر في المعاني والمفردات والصيغ والدلالات، وستكون النتيجة الحتمية هي تخلف اللغة عن ركب الحضارة والارتقاء والازدهار، وتغدو

(1) صدر البيت: (وَلَا تَكُ فِيهَا مُـفْرِطًا أَو مُفَرِّطًا.(ورد البيت في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر بن عمر البغدادي (ت 1093هـ) بتحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة4/ 1418ه، ص 2/122-123، وهو الشاهد رقم (101). والقائل غير معروف.

(2) ملاحظة:آراء الشيخ التي أشير إليها في هذا المقال هي كلها مما سمعتُه من برنامج أوراق العمر، وإن اقتبستُ شيئًا منها من كتابه "مقالات الشيخ محمد عزير شمس" أحلتُ إليه بذكر الصفحة.

عاجزة عن مسايرة الزمان ومواكبة مستجداته ومخترعات العقل البشري، وستنطوي على نفسها بانتظار انقضاض أشباح الفناء أو الاضمحلال على شخصيتها وهويتها.

هذا، وهناك أمر آخر -غاية في الأهمية-، وهو أن هناك كلمات عربية –وهي كثيرة جدا- قد فاتت المعاجم القديمة، وسها عنها مؤلفوها؛ وحق لهم ذلك، ولا غضاضة ولا عتب ولا لوم عليهم أبدًا، بحكم محدودية الجهد البشري أولا، ثم –ثانيا- أن من غير المستوعب ولا المعقول -عقلا وعرفا وواقعا- أن نتوقع من أوائل المعجميين أنهم قد قاسوا كل قفار الجزيرة العربية، وجابوا جميع البوادي والقرى، وذرعوا جل آفاق الجزيرة بما فيها من الهجر والمدن والبلدان، أو أنهم دونوا كل ما كانت تتكلم به القبائل العربية على اختلاف لغاتها ولهجاتها وتنوع ألسنتها وأساليبها، وترامي منازلها وتنائي ديارها ومساكنها. فقد فاتهم الشيء الكثير. لذلك أشار الشيخ محمد عزير -رحمه الله تعالى- إلى أن المستشرق الإيطالي المعروف (رينهارت دوزي) قام بجمع وتدوين الكلمات والتعبيرات والأساليب التي لم تحوِها الدواوين اللغوية القديمة، فبلغ بها أكثر من اثني عشر مجلدا.

قلتُ: ويدل على ذلك دلالة قطعية أيضًا: ذلك الإنجاز التاريخي الفذ الذي قام به أحد اللغويين العظام في هذا العصر، وهو فضيلة شيخنا الأستاذ الدكتور عبدالرزاق بن فراج الصاعدي الحربي، حفظه الله ووفقه؛ حيث جمع ما فات المعاجم القديمة من الألفاظ والكلمات أي الجذور والأصول، فبلغت تلكم الأصول -حتى الآن- أكثر من أربعة آلاف ما بين مادة وجذر وكلمات، وقد سماها فضيلته بـ"الفوائت الظنية".

والشيخ محمد عزير شمس لا يأتي حين يرى هذا الرأي ببدع من القول، ولا يخالف بذلك المألوف والمعروف من السنن الكونية واللغوية، فقراءاته الواسعة والمتنوعة واطلاعه على مذاهب الأدباء والنقاد -القدامى والمحدثين- حول ماهية اللغة ووظيفتها ومهمتها في الحياة البشرية وبخاصة بالجانب الفكري منها، هو الذي قاده إلى هذا الرأي القائل بضرورة الحاجة وحتميتها إلى تجديد اللغات وتحديث محتواها -وفي مقدمتها اللغة العربية- بقدر ما تسمح به طبيعة تلك اللغة، وأن الأمر في ذلك ليس توقيفيا ولا حتى شبه توقيفي.

ويبدو لي أن أدباء المهجر هم أوائل الكُتَّاب والأدباء الذين تحدثوا في هذا الموضوع بتوسع وإسهاب وتكرار وإصرار، والشيخ -رحمه الله تعالى- كان مطلعا على كل ما كتبوه وما نادوا به، وما أبدوا من آراء ووجهات النظر في مختلف القضايا اللغوية والأدبية والفكرية، فلا غرو أن يجد الشيخ في صنائع هؤلاء دعما لما يرى ويذهب إليه. وكان هؤلاء القوم -أو جلهم- عبوا من ثقافات متعددة شرقية منها وغربية، واطلعوا على أجناس وأشكال وأصناف من الكلام لم يعهدوا مثلها في المشرق ولا في المغرب العربيَّين؛ فراحوا ينادون -بإلحاح- بضرورة تحديث اللغة العربية وتجديد كسائها وزخرفة ثوبها بكل أنواع الأساليب الجديدة التي يستوحيها الأدباء والشعراء من ثرى عقولهم الخصبة، ويبتكرونها من أجنحة مخيلاتهم المحلقة أو يستفيدونها من لغات وثقافات وشعوب أخرى. ومن أبرز هؤلاء: الأديب الشاعر: ميخائيل نعيمة، الذي أشار الشيخ محمد عزير شمس في بعض مقابلاته إلى أهم أفكار هذا الأديب ومذاهبه في اللغة والأدب والفكر، ومن أبرز تلكم الآراء الأدبية

والنقدية: رأيه في علم العروض والقافية، وذلك من خلال كتابه المعروف جدا والموسوم بـ"الغربال". وسيأتي الحديث عن علم العروض في مكانه عما قليل.

والحقيقة أن قضية اللغة احتلت في الفكر الأدبي لدى ميخائيل نعيمةحيزاكبيرا، سواء في كتابه: "الغربال" أو في غيره من الأعمال الأدبية التي عالج فيها هذه القضية، ككتابه في الرواية: "مذكرات الأرقش"، حيث لاحظ فيه بروز اللغة «مدعاة للخصام» بين الناس؛ والواقع، كما يرى، أنها «وُجِدَتْ لخدمتهم، ولم يوجدوا لخدمتها؛ وأن ليس على وجه الأرض لغة كاملة بتركيبها، كافية لتأدية كلِّ انفعالات النفس وتماوجات العواطف والأفكار؛[1] وأن لا نفع من أيَّة قاعدة لغوية إلا بقدر ما ترفع من الالتباس وتساعد في دقَّة التعبير»؛ وكلُّ قاعدة لا ترفع التباسًا ولا تساعد في دقة التعبير هي «قيد من حديد». وبالتالي، فإن «أوسَع اللغات وأجملها: أبسطُها...»[2]

ويؤكد هذا الرأي في كتابه "الغربال" أيضًا، معتبرًااللغةَ مؤسَّسة إنسانية ابتدعها الإنسان من أجل التواصل. ومن ثم فإن تطورها أمرٌ حتمي يرتبط بتغير الإنسان؛ لأنها كائن حيٌّ،وأنها «كالشجرة، تبدِّل أغصانها اليابسة بأغصان خضراء، وأوراقها الميتة بأوراق حيَّة».[3]لذا يجب ربط تطور اللغة بتطور المجتمع بدل العمل على إقبارها...، فلا البشرية اليوم هي نفس البشرية التي كانت منذ قرون، ولا لغاتها هي اللغات التي كانت قبل هذا العصر...، أما السرُّفي تقلُّب لغات البشرفليس في اللغات بل في البشرأنفسهم.[4]

والشيخ عزير-رحمه لله تعالى- متأثرجدا بهذا الرأي، أعني ضرورة تجديد اللغة والتحديث من ريشها وثوبها بما يلائم ظروف العصروأذواق أهله؛ وهو لا يخفي هذا الرأي أبدا، و إنما يعلن به بملء فمه، فنراه يوصي -بقوة وإصرار- عموم الطلاب بقراءة الأدباء المحدثين من أمثال عباس محمود العقاد و إبراهيم عبدالقادر المازني ومصطفى المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي وطه حسين وأحمد حسن الزيات، بالإضافة إلى أدباء المهجرالذين أغلبهم من النصارى العرب أو يهودهم، ويوصي كذلك بقراءة كتبٍ مثل كليلة دمنة، وألف ليلة وليلة، ونهج البلاغة، وحي بن يقظان وغيرها، وفي ذات الوقت ينكرعلى من يحذرمن هؤلاء الأدباء أو من كتبهم ومؤلفاتهم ونتاجهم الأدبي والفكري، ومن أساليبهم الجديدة في التعبيروالبيان متسائلا: إذا أنكرنا عليهم هذه الأساليب فهل نريد أن نقول أنهم لم يكتبوا بالعربية؟ فبأي لغة كتبوا إذن؟

بل إنه -رحمه الله- يذهب أبعد من ذلك؛ فيحث طلاب الشريعة والدراسات الإسلامية على التنويع في القراءة والمطالعة حتى ولوكانت تلكم الكتب تتضمن عقائد وآراء لا تتوافق -كليا أو جزئيا- ومنهجَ السلف، أو

(1) لعله يرمي بهذا الكلام إلى أن نظام الاقتراض والإقراض من السنن اللغوية الثابتة، والسارية في سائر اللغات البشرية، والعربية واحدة منها؛ حيث استعمل القرآن الحكيم المعجز كلمات ليست في أصلها عربية.

(2) ميخائيل نعيمه، مذكرات الأرقش، طب 7، مؤسسة نوفل، بيروت، 1982، ص 44 .

(3) الغربال، ص 96.

(4) ميخائيل نعيمه، الغربال، طب 13، مؤسسة نوفل، بيروت، 1983، ص 93.

كان مؤلفوها ينتمون إلى مدارس فكرية أو مذاهب فقهية قد يكون بينها وبين عقيدة السلف ومنهجهم خلاف أو نكارة أو برزخ، فيحضّ الطلاب من أهل الحديث (السلفيين) خاصة، مؤكدًا على ألا يتقيدوا بنوع أو صنف معين من الكتب والمؤلفات، وألا يهابوا من كتب المخالفين أو أفكارهم؛ ما داموا قد عرفوا الحق والعقائد الصحيحة والمنهج القويم في أثناء دراستهم في مدارس أهل الحديث وكلياتهم.

ولكي يشجعهم على قراءة المخالف وما يطرحه من رؤى و أفكار يضرب -رحمه الله- مثلا من نفسه؛ إذ يقول بأنه يحب الاطلاع على الكتب المحظورة والممنوعة أكثر من خلافها؛ وذلك لكي يعلم ماذا بداخل تلكم الكتب حتى منعتها جهات أو سلطات في بعض البلدان من التداول أو النشر؟ مستشهدا بالمقولة المعروفة: أَحَبُّ شَيءٍ إِلى الإِنسَانِ مَا مُنِعَا.[1]

ويخيل إلي أنه -رحمه الله تعالى- حين يطرح هذه الفكرة فإنما دافعه في ذلك هو ما تعاني منه ساحة السلفيين خاصة، وعلماء الشريعة والدراسات الإسلامية عامة، من جدب في الفكر وقحط في النتاج؛ لكون جلّهم بمعزل عن الحركة الفكرية، مع أن هناك قضايا فكرية كثيرة سيقت في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة مساقا سهلا ميسورا في الفهم والاستيعاب والاتعاظ، وهي تدعو المشتغلين بالعلوم الشرعية إلى أن ينحوا هذا المنحى العقلي والفكري؛ لتكون شخصيتهم متوازنة في السلوك، متكاملة في المعارف، ومن لم يهتم بهذا الجانب فسيعتريه النقص والخطأ والخطل، بل ويشوبه الخلل أيضًا، وبالتالي فقد لا يعود صالحا لقيادة مجتمعه أو التأثير المطلوب فيه.[2]

المبحث الثالث: رأي الشيخ في علم العروض والقافية:

إن من أهم فروع علوم اللغة والأدب لَعِلمًا مختصرًا ولطيفًا وجميلًا، يُعرف بالعروض والقافية. وهو علم -كما نعلم جميعًا- توزن به الأبيات الشعرية، وبه يتم ضبط أنغامها؛ بحيث تجري على اللسان بسلاسة، وتنساب رخاء من غير عوج ولا أمت، وبه يعرف الخلل الذي يكون -ربما- أصابَ بعض الأبيات الشعرية بسبب روايتها بواسطة الأعاجم أو المستعربين، أو ممن لا يتمتعون بالطبع الموزون ولم تتكون أو تنضج لديهم السليقة العربية؛ فيحصل -نتيجة ذلك- تصحيف أو تحريف في بعض الكلمات أو تبديل كلمة بأخرى لا تتفق

(1)عجز بيت لقيس بن المُلوَّح المعروف بمجنون ليلى، صدره: وَزادَنِي كَلَفاً فِي الحُبِّ أَن مُنِعَتْ. (انظر ديوانه برواية أبي بكر الوالبي، بتحقيق يسري عبدالغني، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة 1، 1420، ص 39.)

هذا، ولا أشك أن الشيخ -رحمه الله تعالى- يقيس هنا الطلاب على شخصه الموسوعي الذي كان يتسم -في ذات الوقت- بجرأة فائقة وشجاعة كبيرة في مواجهة ونقد الآراء والنظريات العلمية لدى جميع أرباب الطوائف الإسلامية وحتى غير الإسلامية. وإن ثقته الكبيرة بعلمه ومعرفته المستقاة من عقائد السلف وأهل الحديث كانت تحدو به لكي يبادر إلى الالتقاء بكل عالم ومفكر ومؤلف ، وزيارته والاجتماع به ومن ثم الاطلاع على ما في جعبته عن كثب؛ وإجراء النقاشات والحوارات العلمية والفكرية معه من غير ما هيبة أو توجس، مهما كانت توجهاته العلمية والفكرية والدينية؛ بل إنه كان يعتبر ذلك من جملة هواياته، كما صرح بذلك بنفسه قائلا: "هوايتي: في التقاء المشايخ والعلماء وزيارة المكتبات." (برنامج: أوراق العمر، حلقة 15.) والحق أنه ليس كل عالم –بله طالب- يُرزق من الله سبحانه بمثل تلك الهمة والجرأة والإقدام، وإنما قلة قليلة فقط من العلماء؛ ونزر يسير من الطلاب.

(2) انظر: الجانب الفكري للمشتغلين بالعلوم الشرعية، د. محمد الشريف، ط/1، 1430-2009م، الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع، مصر، ص 4-5.

مع الكلمة الأصلية في حركاتها وسكناتها؛ فينكسر بذلك الوزن الشعري، ويقع نشاز في الصوت والموسيقا. وهي قواعد استنبطها من الشعر العربي عقل رياضي ثاقب جبار، وطبع مرهف موسيقي موزون زخار، كعقل وطبع موجده المبتكر: إمام العربية الفذ العبقري الإمام الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي (ت 170هـ) رحمه الله تعالى.

والحق –كما يعلم الجميع- أن تلك الضوابط والقواعد لا تختلف كثيرا في سبب نشأتها وأغراضها – وكذا في تشعبها وصعوبة بعضها أو دقتها- عن القواعد النحوية والصرفية والنقدية، ولا كذلك عن قواعد علم الحديث وأصول الفقه والتفسير وغيرها بشكل عام أيضًا.

ومع وضوح هذه الحقيقة واعتقادي الجازم بأن الشيخ الراحل -رحمه الله تعالى- كان يدرك هذا الأمر حق الإدراك ويعرف ما يقوله ويراه حياله تمام المعرفة وأكثر منا، بيد أننا نراه -رحمه الله- لا يبدي ارتياحه لهذا العلم، بل ولا يرى ضرورة لدراسته أصلا، أو تدريسه كمساق تعليمي مستقل يخصص له عام دراسي كامل.

وهنا يثور تساؤل كبير، لماذا كان يبدي الشيخ -رحمه الله تعالى- تبرمه من هذا العلم الذي يشبه في لطافته ووجازته وأهميته علمَ الفرائض شبها كبيرا؟ حتى لقد ردَّ على أحد السائلين حين سأله عن رأيه في هذا العلم خلال أحد اللقاءات العلمية بدولة الكويت- ردًّا تشوبه نبرة الزهد الشديد فيه والبراءة التامة أو شبهها منه، قائلا: "رأيي فيه سيِّءٌ، وقد لا يعجِب المخاطَب!" ثم قال بأنه لا ينصح بقراءة أي كتاب في هذا العلم؛ لأنه لا يصلح شيء منها للقراءة. غير أنه –رحمه الله- في المقابل أثنى كثيرا على كتاب الدكتور عبدالله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعته، وأيضًا نصح بقراءته؛ معللا ذلك بأنه لم يؤلف مثله في معرفة الشعر العربي وتعليمه..الخ"

وقبل الجواب على هذا التساؤل يحسن بنا أن نتذكر أنه -رحمه الله- كان يرى في هذا الخصوص أن هذا العلم لا يحتاج إلى كل هذا الوقت الذي يصرف فيه، وإنما يكفي لتعلمه دورة لا تمتد أكثر من بحر ليلة، أو ظرف أسبوع أو مساحة شهر بالكثير، لا أزيد. والشيخ في ذلك متاثر -بالتأكيد- بقول وصنيع المفسر المعروف الألمعي الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري -رحمه الله- الذي أتقن قواعد هذا العلم في غضون ليلة واحدة لدى أحد معارفه بمصر، ممن كان ينشط له ويتقن أصوله وقواعده، ويضبط زحافاته وعلله، فقال الإمام حينئذٍ قولته الشهيرة: "...فَأمسَيتُ غَيرَعرُوضِيٍّ، وَأَصْبَحتُ عرُوضِيًّا."[1]

وليس هنا مجال استقصاء البحث والدراسة حول هذا الرأي؛ فله مكان آخر، غير أني أرى أن الشيخ -رحمه

(1) قالالإمام محمد بن جرير الطبري - رحمه الله -: "لَمّا دخلتُ مصر لم يبق أحدٌ من أهل العلم إلا لقيني وامتحنني في العلم الذي يتحقق به، فجاءني يوماً رجلٌ، فسألني عن شيء من العروض، ولم أكن نشطت له قبل ذلك، فقلت له: عليّ قول أن لا أتكلم في شيء من العروض، فإذا كان في غد فَصِر إلَيَّ، وطلبت من صديق لي كتاب "العروض" للخليل بن أحمد، فجاء به، فنظرت فيه ليلتي، فَأَمسَيتُ غَيرَ عرُوضِيٍّ وَأَصبَحْتُ عرُوضِيًّا." (انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، بتحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، ص 2449/6.)

الله تعالى- لا يجانب صوابًا أو لا يأتي ببدع من القول حين يعرب صراحة عن رأيه هذا.

وذلك لأنه مع ما يبذله الطلاب في دراسته من جهد جهيد، وما يقاسونه أثناء حفظ مصطلحاته المتشابهة والمتشابكة من معاناة شديدة بيد أن الحقيقة التي لا يكاد يختلف فيها اثنان أن معظمَ الطلاب يخرج من هذا العلم صفر اليدين وخاوي الوفاض، أي كمن يحاول جاهدا مسك الماء بقبضة كف، أو يسعى لاهثا وراء السراب ابتغاء الوصول إليه، ولكن هيهات!!

ويتأكد هذا الأمر أكثر عندما يتم تدريس مثل هذا العلم للطلاب الأعاجم في الدول غير العربية، فلا شك أن هذا الأمر حينئذ سوف يزيد الطين بلة، والأمر علة؛ لأن الذي يعرف وضع المدارس الإسلامية والعربية – خاصة- في شبه القارة الهندية وأحوال طلابها ومدى مبلغ كعب معظم مدرسي اللغة العربية فيها لن يتردد في أن يصدر فتوى بتحريم تدريس مثل هذه المَساقات الدقيقة -وغير المهمة أو المحتاج إليها- في تلكم المدارس وبيئاتها، ولا سيما لهذا الصنف من الطلاب؛ وذلك توظيفا لطاقاتهم وصرفا لجهودهم صوب تلكم العلوم التي تهمهم أكثر، أو التي تخدم تلك العلوم التي يستفيدون منها في حياتهم العلمية والوظيفية والمجالات الشرعية في قادم الأيام.

فهذا -برأيي- أحد تلكم الأسباب التي جعلت الشيخ لا يرتاح لهذا العلم، ولا يشجع أحدا على الاقتراب منه، بل ويشفق على الطلاب الذين يفرض عليهم دراسته.

والأمر الثاني أن هذا العلم -مع جلالة قدره وبالغ أهميته للمشتغلين بالأدب والشعر- لا يحتاجه الطلاب في المراحل قبل الجامعية ألبتة، وبخاصة في البلدان غير العربية، ولا يحتاجه كذلك كل طالب ممن يدرس في المرحلة الجامعية بكليات اللغة العربية وآدابها أو سواها حتى في الدول العربية، إلا من كان شاعرا أو يسعى إلى قرض الشعر، وكلا الأمرين قليل الوجود إن لم نقل نادره، ومن كان منهم شاعرا فطبعه في الغالب يكون موزونا؛ بسبب غزارة محفوظاته الشعرية أو سليقته العربية المجبول عليها بالفطرة.

وأما من يسعى إلى قرض الشعر وتعلم طرائقه وسننه فليس الصراط المستقيم إلى ذلك هو تعلم علم العروض والقافية بما فيه من زحافات وعلل ومصطلحات دقيقة ومتشابكة؛ ولكن أمثل و أقوم طريق إلى ذلك هو أن يخزن أمثال هذا الطالب في ذاكرتهم محفوظات شعرية ونثرية بكل ما يستطيعون؛ وبذلك يكونون قد كسبوا جل العلوم اللغوية بطريق الحفظ والاستظهار، على غرار الأوائل من العرب في العصور الغابرة: الجاهلي وصدر الإسلام والأموي والعباسي وغيرها، ويكون كذلك قد أثرى وأغنى مخزونه العلمي والمعرفي والثقافي بالكثير من المعاني والأفكار والقيم والأساليب بالإضافة إلى تكوين رصيد و افر من المفردات والألفاظ وغير ذلك مما لا غنى عنه للشاعر أو العازم على قوله وقرضه. وهذه الطريقة هي التي اختارها وسلكها وطبقها مؤلف كتاب "المرشد إلى فهم أشعار العرب"، الدكتور عبدالله الطيب؛ رحمه الله تعالى، لذلك نرى الشيخ شَمسًا -عليه رحمة الله- قد أشاد ونوَّه بهذا الكتاب وبصاحبه أيما إشادة وتنويه؛ لأنه و افق رأيه وراق وجهة

نظره، تمامًا كما كان–ذات يوم- و افقَ شنٌّ طبقةً.

فنظرة الشيخ هنا -بر أيي- نظرة تعليمية وتربوية بحتة، وهي رسالة مفتوحة موجهة للمتخصصين في مجال التعليم والتربية والمعنيين بإيجاد ووضع مناهج دراسية للمعاهد والكليات. لذا نراه -رحمه الله تعالى- كأنما يتحين الفرص للحديث في مثل هذه الموضوعات الحساسة والمصيرية المرتبطة بالتعليم والتربية والمناهج الدراسية وظروف الطلاب ومستقبلهم والأعباء الدراسية التي يحملون أو يرضخون تحتها، ولا يخفي أسفه على الدرك الحضيض الذي قد وصل الطلاب إليه، ولا تألُّمَه بمستواهم التعليمي والفكري والثقافي المتدني في أغلب المعاهد الدينية، وخاصة في شبه القارة الهندية، وهو يكاد يعلن عن يأسه أو إحباطه الشديد حيال حركة الإصلاح البطئية أو السقيمة أو المفقودة في تلكم المعاهد والكليات.

ونجد صدى ما يعتمل بداخله من ألم وحرقة تجاه المدارس الهندية وطلابها وعلمائها في قوله في خاتمة الحديث عن أعلام المحققين في الهند ونشر التراث العربي: "هذا استعراضٌ سريعٌ لما قام به أعلامُ المُحقِّقين في الهند في مجال تحقيق التراث ونَشْرِه، وقد خلَتِ البلادُ الآن من أمثال هؤلاء العلماء، والمرجو من الجامعات ومراكز البحوث أن تُكَثِّف جهودَها لتدريب الطُّلاب والباحثين على تحقيق المخطوطات ونشرها، وفهرسة ما تناثَر منها، والتعريف بها ودراستها، وترجمة المهمِّ منها إلى اللُّغات الهندية والأوربّية، وتخصيص مِنَح دراسية لمن يقوم بتحقيق مؤلَّفات العلماء الهنود باللُّغة العربيَّة عبر القرون، وتعريب ما ألَّفوه بِغَيرها."[1]

وليس الأمر -كما قد يخيل إلى بعض- أن الشيخ -رحمه الله تعالى- كان يكره هذا العلم أو سواه من علوم اللغة، معاذ الله! بل لقد كان -كما قال زميله فضيلة الشيخ علي العمران -وفقه الله تعالى- الذي عمل معه طويلا أن الشيخ : "... له معرفة متميزة باللغة وعلومها – خاصة العروض- وله بالدواوين الشعرية والمجاميع الأدبية عناية ظاهرة، يشهدكم بذلك من له معرفة بهذه الأمور من المختصين، وبالجملة فالشيخ من أكثر من رأيتهم عناية بالتراث ومعرفة بقيمته وتفانيا في خدمته ويشهد بذلك كل من عرفه أو جالسه."[2]

❁❁❁

المبحث الرابع: الشيخ محمد عزير شمس بين لغة العلم ولغة الشعر والأدب:

الحقيقة أن الجوانب والخصائص التي تتمتع بها شخصية الراحل -رحمه الله تعالى- كثيرة، وهي بحاجة إلى عدة مقالات و أبحاث علمية. وقبل اختتام هذه الأسطر يجب أن أشير إلى خصيصة جميلة في شخصية الشيخ

(1)مقال بعنوان: "أعلام المحققين في الهند وجهودهم في نشر التراث العربي الإسلامي، للشيخ محمد عزير شمس"، وهو منشور على موقع الألوكة. (قلتُ: إن المرأ ليأسره العجب ويعتصره الألم عندما يكتشف أن الشيخ -رحمه الله تعالى- نعى على تلكم المدارس وأصحابها مسيرتهم غير السوية بل افتقادهم بوصلة أهدافهم؛ قبل ما يقارب أربعة عقود من اليوم! ولكن لا أحد يدرك ما الذي أصاب أرباب التعليم والتربية في شبه القارة الهندية، وخاصة ملّاك المدارس والجمعيات والمنظمات المتعددة التي يمتلكها السلفيون في تلكم البلاد، فلم يعدلوا أو يحاولوا العدول إلى الصراط السوي في مجال التعليم والتربية! وحينئذ فلا ضير ولا لوم على من يستنتج من ذلك أن الشيخ -رحمه الله تعالى- كان ينفخ في جرابٍ مخروقٍ، أو يطعن في الريح! وكأنْ ليس بمن يناديهم اكتراث!

(2) "ترجمة الشيخ المحقق محمد عزير شمس بن شمس الحق بن ضياء الله"، إعداد مركز سلف للبحوث والدراسات الإلكترونية، بإشراف الدكتور محمد بن إبراهيم السعيدي، ص 15.

رحمه الله تعالى، ألا وهي سيطرته الكلية على اللغة العربية تحدثًا وكتابة، في سهولة و انسيابية تامة. وإن تعبيره يمكن أن يطلق عليه "التعبير العلمي الخالص"، كتعبير شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. وكلام الشيخ محمد عزير يستوفي كل مقومات هذا النوع من التعبير، من حيث وضوحُ المعاني وجلاءُ الأفكار وسهولةُ الألفاظ مع رصانةٍ في الأسلوب ودقة في الجمل وصحة في التراكيب.

ولا شك أن الشيخ -رحمه الله تعالى- كانت له مناسبة قوية ورغبة عارمة بل شغف شديد بالأدب والشعر، ولديه ذائقة أدبية قوية في اللغتين الأردية والعربية. وقد مضت الإشارة إلى أنه بلغ به النهم بالشعر حدا جعله يحمل معه في أول سفره إلى طيبة الطيبة ديوان الشاعر ميرزا غالب، غير أنه آثر لاحقًا الاشتغال بالمجالات العلمية الخالصة على المجالات الأدبية والشعرية. وقد بيَّن الشيخ سبب ذلك، وهو أن مجال الأدب والشعر لا يلائم مجالات علمية خالصة، مثل تحقيق المخطوطات والفقه والتاريخ والشريعة عامة؛ حيث إن الأدب، وخاصة الشعر، يتطلب من الكاتب والشاعر التحليق والعيش في عوالِم الخيال أكثر من الو اقع، والمجالات العلمية على العكس من ذلك تقريبا.[1] لذلك عدل الشيخ عن الكتابات الأدبية والشعرية صائرًا إلى الكتابات العلمية المحضة، والانقطاع التام نحو الإنتاج الثقافي والفكري الو اقعي الخالص. فعوضه الله سبحانه وتعالىبما هو خيرله و أنفع في دنياه وأخراه. فقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: (إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيئاً للهِ عَزَّوجَلَّ إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِه مَا هُو خَيرٌلَكَ مِنْهُ.)[2]وقد نرى هذا العوض الجميل اليوم متمثلا في هذا التراث الهائل والر ائع الذي خلفه للإسلام وعلمائه و أبنائه، وخاصة للأجيال القادمة عربًا وعجمًا.

وقد مضى قبل قليل نموذج من تعبيره الكتابي مقتبسا من مقاله "أعلام المحققين في الهند وجهودهم في نشر التراث العربي الإسلامي". كما أن التعبير الشفوي لدى الشيخ -رحمه الله- كان رائعا، ويخلو من التلكؤ ولوك الكلام أو الغمغمة والغموض خلوا تاما، وكذلك من أي نوع من الخطأ، لغويا أو صرفيا أو نحويا، بل إنه يصحح بعض الصيغ المتداولة بين العلماء وغير العلماء، ويقترح الاستعمال الصحيح لتلكم البنى والصيغ، كما قال -مثلا- عن كلمة (مُجَمَّع اللغة) بأن الصحيح هو: "مَجْمَع اللغة" وغيرها. وهذا واضح وبيّن تمام الإبانة لمن استمع إليه مباشرةً أوعلى الشبكة العنكبوتية، مما يغنيني عن سَوق الأمثلة أو الشواهد على ذلك، ولكن مع ذلك لا بأس من إيراد نماذج أخرى من كلامه؛ لتكون شهودا حاضرة على ما أرمي إليه.

يقول -رحمه الله تعالى- وهو يؤكد على ضرورة اتباع السنة والتمسك بها والاهتمام بالتوحيد والعقيدة الصحيحة، بالإضافة إلى العناية بآثار العلماء المحققين من أئمة أهل السنة كابن تيمية و ابن القيم وغيرهم: "مثل ما يهتمّ الإنسان بكلام الله يهتمّ بكلام الرسول ﷺ، ولا يكفي فقط حب الرسول ﷺ، الحب واجب، ولا يمكن أن يوجد مؤمنٌ بدون حب النبي ﷺ، وبدون الصلاة عليه، ولكن الحب المجرد لا يكفي لأن تكون قويَّ

(1) برنامج أوراق العمر، 15.

(2)رواه الإمام أحمد، برقم (21996). وقال الإمام الألباني: سنده صحيح على شرط مسلم.(السلسلة الضعيفة (62/1).

الإيمان؛ لأن معنى الحب أنك تتّبعه؛ فإذا كنت تحب هذا الشخص، تريد أن تتبعه وتريد أن تعرف ماذا كان يعمل؟ وكيف كان يفعل؟ وماذا كان يقول؟ وكيف كان يعيش؟... فالأمر متيسر لديك، فكل من يستطيع أن يقرأ الآن... يطلع على كتب الأحاديث بنفسه ويقرأ فيها، بل ليس هذا فقط، فقد تمت الحجة؛ حيث إن هذه الأحاديث الآن مسجلة كاملة تسجيلا مرئيا ومسموعا.[1]

وهكذا كل كلامه -رحمه الله- يجري في عروقه ماء الرقة والنضارة والسلاسة من غير ما تكلف ولا اختلاف في المستويات، ولئن كان الشيخ أعرض عن الأدب والشعر الذي تكون تعبيراته مليئة بالمجاز والاستعارة والكنايات غير أن طبعه الشعري والأدبي لا يخفى حتى في الكلام العلمي المنثور؛ حيث نجد أن العديد من الصور البلاغية و أنواع المجاز تتقافز إليه وهو ربما لا يقصد إلى ذلك، مثله في ذلك مثل الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- الذي شدد النكير في قضية المجاز حتى أنكرها نهائيا، غير أنه عمليا قد أكثر واستكثر من استعماله في كتاباته، بيد أنني لا أتوقع أن الشيخ محمد عزير كان موافقًا لشيخيه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم–رحمهما الله تعالى- في قضية المجاز.

يقول الشيخ -رحمه الله تعالى- في مقدمة كتاب الفوائد للإمام ابن القيم: "وبعد، فهذا كتاب من أروع ما وصل إلينا من مؤلفات الإمام ابن القيم رحمه الله، جمع فيه ألوانا من الفوائد واللطائف والعبر والمواعظ والنكت والدقائق والملاحظات والأفكار في فنون مختلفة.ولم يرتبه على الموضوعات والأبواب، ويبدو أنه خصص كُنّاشا أو دفترا لتسجيل هذه الخواطر والفوائد المتفرقة، وأدرج فيه ما استحسن منها في فترات مختلفة من حياته. وطريقته فيه أنه يبدأ كل فائدة وبحث بكلمة: فصل أو قاعدة أو فائدة أو تنبيه، ويورد تحتها من بنات فكره أو من الكلمات المأثورة عن السلف أو من الأبيات والحكم المنثورة ما يعتبرها خيرَ معين لِمن يريد طريق النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة."[2]

ويختم تلك المقدمة بقوله: "فدونك، أيها القارئ، كتابا كله درٌروفوائدُ، وتبصرةٌ وتذكرةٌ، وإرشادٌ وتوجيهٌ. ولعلك لا تجد له نظيرًا بين الكتب التي قرأتَها. أدعو الله أن يوفقني و إياك للتأمل فيه والاستفادة منه؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه."[3]

ولعل فيما أوردتُ كفايةً لتجلية بعض جوانب حياة الشيخ رحمه الله تعالى وآرائه اللغوية، وإن كان الحديث عنه ماتعًا وعذبًا رائقًا، ولو أن ظروف العمل والتدريس -إضافة إلى بعض الأعمال الجانبية المهمة التي تخللت الأيام الماضية- كانت تسمح لي بإجراء دراسة علمية معمقة عن شخصية الشيخ لفعلت ذلك في ماضى الأيام، ولكني آثرت الانتظار والترقب لما سيصدر عن حياته وسيرته من "كتب وثائقية" تتضمن مقالات العلماء

(1)محاضرة في السنة النبوية وتدوينها وتطورها للشيخ محمد عزير شمس، وذلك في استضافة الشيخ مصطفى بنحمزة في المغرب وفي مدينة جدة.

(2)انظر مستهلّ مقدمة كتاب الفوائد لابن القيم، تحقيق الشيخ محمد عزير شمس، مراجعة الدكتور محمد أجمل الإصلاحي والشيخ علي العمران، طبع مؤسسة الشيخ سليمان الراجحي الخيرية، الرياض.

(3)انظر نهاية المقدمة لكتاب الفوائد لابن القيم، تحقيق الشيخ محمد عزير شمس.

ودراسات الباحثين، و انطباعاتهم وأحاديث وقصص عشرتهم وصحبتهم ومخالطتهم للشيخ، والتي يجري إعدادها الآن تحت إشراف جمعية أهل الحديث المركزية لعموم الهند.

الخاتِمة: وبعد هذه الجولة السريعة في رحاب سيرة شيخ الهند العلامة محمد عزير شمس -رحمه الله تعالى- نلاحظ ونسجل ما يلي من نتائج:

- أنه رحمه الله تعالى كان يتمتع برو افد ومقومات عديدة أسهمت في صياغة شخصيته، من أهمها بيته وبيئته التي نشأ فيها؛ حيث كان أبواه عالمين، توارثا العلم والأدب والثقافة الإسلامية كابرا عن كابر.
- إن آباء الشيخ كانوا قد أسلموا في وقت مبكر من وصول الدعوة الإسلامية إليهم.
- وهؤلاء الآباء والأجداد كانوا يشتغلون بالزراعة بحكم ما كان يقتطعه الولاة والأمراء المسلمون لرعيتهم من المسلمين من الأراضي الزراعية والسكنية وغيرها.
- رواج العلم الشرعيفي أسرة الشيخ كان حديثًاإلى حدٍّ ما؛ إذ تقول الأخباربأن جد الشيخ محمد عزير هو أول من اتجه لتعلم العلوم الشرعية من أسرته. وقد بارك الله فيه وفي أبنائه وأحفاده.
- كان الشيخ يتمتع برغبة شديدة وحقيقية وشوق عارم للحصول على العلوم الشرعية واللغوية وحتى غيرالإسلامية من مثل الرياضيات والإنكليزية ونحوها.
- كان الشيخ يتمتع بذكاء حادمع سعة الذاكرة وسرعة البديهة.
- لا يكاد يبلغ شأوه في العلم والثقافة والمعرفة الواسعة بالمخطوطات ومناهج المؤلفين أحدٌ من زملائه و أقر انه بل معاصريه في أكثر البلدان. وكان يفحم كبار الباحثين والعلماء وهو شاب في مقتبل العمر.
- كان الشيخ يتمتع بجرأة و إقدام وهمة عالية، وكان حريصا جدا على لَمّ شمل العلماء والدعاة والتخفيف من حدة خلافاتهم.
- كانت قراءاته واسعة جدا في جميع العلوم والفنون وكان يتقن عدة لغات من بينها الإنكليزية والفارسية والعربية بالإضافة إلى الهندية والأردية.
- كان الشيخ يتحلى بخصال جميلة ومكارم الأخلاق، ويضرب به المثل في التواضع ولين المعشر وإكرام الضيف وخدمة طلاب العلم بكل ما يستطيع.
- كانت عند الشيخ ذائقة لغوية وأدبية وشعرية وكان يقرض شعرا، غير أنه آثر الانقطاع لفن التحقيق.
- آراء الشيخ اللغوية والأدبية والنقدية كلها نابعة عن قراءة واسعة، وجُلّها إن لم أقل كلها صائبة، وإن كان قد اشتد أسلوبه في بعض العلوم أو القضايا والمسائل فذلك لأجل غيرته على اللغة العربية وطلابها وشُدَاتها.

- كتابات الشيخ كلها سليمة من الأخطاء اللغوية والأسلوبية والنحوية وغيرها، كما أن لهجته في التكلم وطريقة نطقه حاءت هي الأخرى سليمة. ولا يخطئ في أي كلمة بل يصحح العديد من الكلمات من الناحية الصرفية ونحوها.

المراجع:

- ترجمة الشيخ المحقق محمد عزير شمس بن شمس الحق بن ضياء الله"، إعداد مركز سلف للبحوث والدراسات الإلكترونية، بإشراف الدكتور محمد بن إبراهيم السعيدي.
- حلقاتبرنامج: أوراق العمر، على الشبكة العنكبوتية.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادربن عمر البغدادي (ت 1093هـ) بتحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة4/ 1418هـ.
- ديوان أحمد شوقي، دارصادربيروت. د.ت.
- ديو انإيليا أبو ماضي (1889-1957، ط/ دار العودة، بيروت.
- ديوان حافظ إبراهيم، بتحقيق أحمد أمين وزملائه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط/3، 1987م.
- ديوان حسان بن ثابت ﷺ، بتحقيق عبد مهنأ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة2، 1414هـ.
- ديوان قيس بن المُلوَّح المعروف بمجنون ليلى، برو اية أبي بكر الوالبي، بتحقيق يسري عبدالغني، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة 1، 1420هـ.
- ديوان كشاجم، تحقيق الدكتورالنبوي عبدالواحد الشعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/1، 1417هـ.
- رسالتان في علم الفرائض: الحجج القاطعة في المواريث الواقعة، والسبيكة الذهبية على المنظومة الرحبية، فيصل بن عبدالعزيزالمبارك، تحقيق محمد بن حسن المبارك، ط/1، 1427هـ دار كنوزإشبيليا، الرياض.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة،الإمام الألباني، المكتبة الوقفية على الشبكة العنكبوتية.
- الغربال،ميخائيل نعيمه، طب 13، مؤسسة نوفل، بيروت، 1983،
- الفوائد لابن القيم، تحقيق الشيخ محمد عزير شمس، مراجعة الدكتور محمد أجمل الإصلاحي والشيخ علي العمران، طبع مؤسسة الشيخ سليمان الراجحي الخيرية، الرياض.
- محاضرة (على الشبكة) بعنوان السنة النبوية وتدوينها وتطورها للشيخ محمد عزير شمس، استضافه الشيخ مصطفى بنحمزة في المغرب وفي مدينة جدة.
- مذكرات الأرقش، ميخائيل نعيمه، مذكرات الأرقش، طب 7، مؤسسة نوفل، بيروت، 1982.
- مركز سلف للبحوث والدراسات الإلكترونية، بإشراف الدكتور محمد بن إبراهيم السعيدي، مقال "ترجمة الشيخ المحقق محمد عزيرشمس بن شمس الحق بن ضياء الله".
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي الرومي، بتحقيق الدكتورإحسان عباس، دارالغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1993.
- مقالات فضيلة الشيخ محمد عزير شمس، جمع وترتيب حافظ شاهد رفيق، الطبعة الأولى، 2020، دار أبي الطيب للبحث والتحقيق، باكستان.
- موقع الألوكة، مقال بعنوان أعلام المحققين في الهند وجهودهم في نشرالتراث العربي الإسلامي، للشيخ محمد عزيرشمس".
- https://ar.wikipedia.org/wiki
- The Relationship between Writing and Reading", www.www2.ncte.org, Retrieved 24-6-2018. Edited. ،
- Reading and Writing (Literacy)", www.asha.org, Retrieved 24-6-2018. Edited ،